إسماعيل بن إبراهيم السماعيل

أحمد شوقي

رحلة العمر والشعر

١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١م

إسماعيل بن إبراهيم السماعيل

أحمد شوقي

رحلة العمر والشعر

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

ⓒ إسماعيل إبراهيم السماعيل ، ١٤١٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

السماعيل ، إسماعيل إبراهيم

أحمد شوقي رحلة العمر والشعر.-الرياض.

... ص ؛ .. سم

ردمك ٥-٧٠١-٣٥-٩٩٦٠

١ - شوقي ، أحمد شوقي بن علي ، ت ١٣١٥هـ أ - العنوان

ديوي ٩٢٨،١٦٢ ١٩/٤٦٦٢

رقم الإيداع : ١٩/٤٦٦٢

ردمك : ٥-٧٠١-٣٥-٩٩٦٠

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا الكتاب

- قد لا يقدم شيئاً لم يكتب عنه السابقون.
- وقد لا يكون قد ألمّ بأدب، وحياة شوقي إلماماً كاملاً.
- لكنه يقدم رؤية المؤلف لهذا الشاعر الكبير التي قد يتفق أو يختلف معه عليها الآخرون.

موضوعات الكتاب

م	الموضـــــوع	الصفحة
1	العصر	5
2	الأسرة والمولد	17
3	في القصر بعد العودة	25
4	ثقافتـــه	46
5	شاعريتـــه	52
6	وطنيَّتـــه	61
7	المدائح النبوية	78
8	الخلافة العثمانية	90
9	التاريخ الإسلامي والبطولات العربية	105
10	جهاد الاستعمار	120
11	الدعوة إلى الوحدة :	125
	1 – الوحدة الإسلامية	125
	2 – الوحدة العربية	129
	3– الوحدة المصرية	132
12	شوقي المرح	136
13	الشعر المسرحي	144
14	كشاف المراجع	169
15	كشاف المجلات	171

العصـــر

بإلقاء نظرة متأنية على شعرنا الحديث في محاولة جادة للتعرف على الشاعر الفرد، والجواد الأسبق، فلا بد من أن نقول: إنه أحمد شوقي شاعر العصر الحديث في رأي الدكتور شوقي ضيف الذي قال: إنه شاعر في تاريخ أدبنا العربي وبإجماع أغلب نقَّاد العصر الحديث. (1)

كان امرؤ القيس هو الشاعر المقدَّم على شعراء العصر الجاهلي عند طائفة من النقَّاد والأدباء، ولم يكن كذلك عند طائفة أخرى، وكان الفرزدق والأخطل وجرير المقدمين على بقية شعراء الدولة الأموية، وفي العصر العباسي برز على الساحة شعراء عظماء كأبي تمام والبحتري والمتنبي، ومع ذلك بقي الشاعر الكبير أبو الطيب المتنبي هو الأجدر بإمارة الشعر في ذلك العصر: بل إنه في نظر كثير من الأدباء والنقَّاد أمير الشعر العربي في جميع عصوره السابقة، حتى آذنت شمس الشعر العربي القوي الذي ينبض لفظه ومعناه بالحيوية والنشاط بالأفول.

ثم أتى عصر الانحطاط الذي ناء بثقله على روح الحياة

(1) شوقي شاعر العصر الحديث، ص5 (المقدمة).

العربية في جميع نواحيها، وخاصة في مجال الأدب بفرعيه. النثر والشعر فتأخر العرب أدبياً كما تأخروا علمياً واجتماعياً وسياسياً، ولم يبرز في ميدان الشعر أو يرتقي عرشه شاعر يشار إليه بالبنان. وبسبب ذلك بقيت (إمارة الشعر) أرملة. حتى أشرقت سنة (1868م) حيث ولد شوقي فكان مولده إيذاناً بعودة إمارة الشعر قوية مزدهرة معشوشبة الساحة مخضلة الأوراق يجري ماء الحياة في عروقها دافقاً ويمنح معانيها وألفاظها وأغراضها النشاط والشباب فعاد إليها ضياؤها، وأصبحت تبراً بعد أن كانت تراباً، واستعادت مكانتها الشامخة في القلوب.

ولذا كان جديراً بشوقي أن يكون رائد الشعر الحديث بإجماع كثير من الأدباء والناقدين ممن لآرائهم مكانة مرموقة عند عشّاق الشعر ومحبي الأدب.

وما من شك في أن بروز شوقي على مسرح الشعر العربي الحديث يعود لمؤثرات عديدة، منها العصر الذي ولد فيه، والقصر الذي عاش في أروقته، والمنفى الذي غادر إليه، وغير ذلك من المؤثرات التي تعاضدت وتلاحمت فأبرزت لنا شاعراً فحلاً استقطب أنظار الناس إليه حتى أصبح ملىء الدنيا، وشاغل الناس بعد أبي الطيب.

على أن أبرز المؤثرات كان عامل البيئة. فما هو المقصود بها؟ أهي بيئة القصر أم حالة العصر، وما كان عليه

من اضطرابات سياسية، واجتماعية، وفكرية أم الاثنتان معاً؟.

لا شك في أن المقصود هو الاثنتان معاً. (القصر) و(العصر)، وبما أن أثر «القصر» في شعره سوف يأتي لاحقاً عند الحديث عن (شوقي والقصر) جاز أن أبسط القول عن المظهر الثاني وهو أثر العصر.

لقد عاش شوقي في عصر مضطرب سياسياً، وفكرياً، واجتماعياً. فمن الناحية السياسية لم تكن مقاليد الحكم الفعلية بيد أبناء أمته وشعبه العربي في مصر، وإنما كانت بيد الاستعمار الإنجليزي الذي أحكم قبضته على مقدرات ذلك الشعب بسبعين ألف جندي تلوث أقدامهم أرض الكنانة، وأيديهم مياه نهر النيل الخالد عام (1881م).

ولم يكن للطبقة الحاكمة المصرية إلاَّ دور رمزي رسم خطوطه المستعمر الذي يستطيع محوها متى أراد في حين لم يكن الملك الذي يتزعم تلك الطبقة عربياً، بَلْ ألبانياً من أسرة محمد علي الذي استقلَّ بحكم مصر عن الخلافة العثمانية عام (1840م).

ومن الناحية الفكرية، كان هناك اتجاهات متباينة منها من يدعو للتمسك بالقديم ويتعصب له، ومنها من يريد نبذه وراء ظهره، والأخذ بالجديد الذي تمثله الحضارة الغربية

التي وفدت مع نابليون عند دخوله مصر سنة (1213هـ، 1879م) وتعمَّقت مع وصول أول جندي إنجليزي سنة (1881م).

ومن الناحية الاجتماعية تعمَّقت الفوارق بين طبقات الشعب تعمقاً مذهلاً انعدم من أجله الإحساس المشترك بالمصير الواحد والمصلحة المشتركة، وتبلَّدت المشاعر، ولم يكن هناك إلاَّ غني، مثل قارون أو فقير معدم كأبي الشمقمق. يفترش الأرض، ويلتحف السماء، وتضاءل دور الطبقة الوسطى والبرجوازية الوطنية إلى درجة الاضمحلال. وبمعنى أوضح، لم يكن في ذلك العصر من أسباب النهوض والازدهار ولو على نطاق ضيق بالنسبة للمواطن المصري ما يشفع له في أن يكون عصر نهضة ولو مجازاً.

هذا لااضطراب الذي عمَّ الحياة المصرية في جميع نواحيها لم يكن مصاحباً لمولد شوقي، وإنما وجد قبله بسنوات كثيرة، ولكنه امتد حتى أدركه وعاش تقلباته، منذ أن أصبحت مصر تعيش تحت حكم سلاطين آل عثمان، بعد انتصارهم على المماليك في معركة مرج دابق عام (1517م) وامتدت يدهم الى كافة البلاد العربية لتحكمها حكماً مباشراً، وكان المسلمون في جميع الأقطار والأصقاع يدينون لهم بالطاعة والولاء، ويؤمنون بزعامتهم

وسيادتهم، لأنهم رأوا فيهم أملاً يجمع المسلمين تحت لوائه ويعينهم من الزمان على بلائه.

فاحتملوا ما أصابهم من ظلم وتعسف وبلاء رغبة في الاجتماع والاتحاد، وعملاً بقول الشاعر الممزق:

فإن كنت مأكولاً فكن خير آكل
وإلاَّ فأدركني ولما أمزق

إلاَّ أن العثمانيين ضعفوا بعد قوة، ووهنوا بعد نشاط بعد أن طال بهم الزمن، واستطال حكمهم الأنام، وغرز فيهم أشواكه وأصبحوا دولة خائرة القوى، بعد أن كانت صخرة تتحطم عليها أماني وآمال الأعداء، وكان من نتيجة ذلك أن انفصل عنها كثير من أجزائها، وطمع فيها جميع جيرانها من فرنسيين وإنجليز وروس وغيرهم، فأصبحت جسماً مريضاً تنتابه علل مختلفة، وتنهكه أمراض خطيرة يرى في كل منها ناب الموت يكاد أن يخطفه، وبلغ ضعفها حدّاً انفصلت بسببه اليونان، وأصبحت مملكة مستقلة سنة (1853م) وطمع فيها محمد علي ـ حاكم مصر ـ مما دفعه إلى غزوها، إلاَّ أن الدولة أخذت تصارع تيارات الانشقاق والعصيان، كما يقاوم المريض مرضه بالعقاقير زمناً ليس بالقصير، حتى سقطت الخلافة على يد الغازي أتاتورك عام (1923م)، وكأنَّ القدر لم يؤخرها إلاَّ ليشهد شوقي نحرها في جميع البلدان الإسلامية، رغم أن لكل بلدٍ آلاماً خاصة لا يشعر بها سواه،

ولا يحس بها غيره، وكان لا بد أن تترك تلك الحياة السياسية المضطربة آثار بصماتها على الحياة العلمية والأدبية في مصر.

فهي خرجت من يد المماليك ليقع عنانها في يد العثمانيين الذين اتهموا بعدم تشجيع العلوم والفنون، بل جعلوا البلاد التي تدين بالولاء لهم تعيش في ظلمات الجهل وسراديب الخرافات، فخبت نار النهضة الأدبية والعلمية، وأصبح هذا العصر امتداداً لعصر الانحطاط، خاصة في ميدان الشعر منذ وفاة المتنبي، من وجهة نظر بعض المؤرخين، وإن كنت لا أرى رأيهم في أن الخلافة العثمانية هي السبب المباشر في هذا التخلف، وإنما هناك أسباب تعود إلى المجتمع العربي نفسه تجعل توجيه التهمة في ذلك لا يبرئه من تحمل جزء من تلك الخطيئة، لا الخطيئة كلها.

المهم أن الضعف دبَّ في ألفاظ الشعر ومعانيه ونسيج لغته، فأصبح يعتمد على المحسنات البديعية من سجع وجناس واقتباس، وقد جاءت متكلفة لمداراة ضعف المعنى، كما انحسرت موجة الأغراض الشعرية القوية من غزل ورثاء وسواها، وأصبح الشعر (ابتذالاً في معانيه كمدح الوُلاة والتهنئة بمولود من دون محاولة للتجديد. كما اشتهر الشعراء ببعض الأغراض السخيفة: كالتشطير والتخميس والتاريخ الشعري كما يقول الدكتور محمد كامل الفقي.(١)

(١) مذكرة أملاها على طلبة كلية اللغة العربية (السنة الرابعة) عام 1391هـ.

أما لغة النثر، فكانت تقوم على التفكك واضمحلال الفكرة وذبولها وضياعها في تيار المحسنات البديعية المتكلفة التي يقحمها الكاتب إقحاماً مما أضعف لغة النثر أيضاً. ويظهر ذلك بشكل واضح عند الجبرتي في تاريخه، واستمرت الحال على هذا المنوال حتى جاءت الحملة الفرنسية سنة (1213هـ) بقيادة نابليون بونابرت الأول. وكانت مجهَّزة بالأطباء والمهندسين والعلماء، وذلك من أجل التقرُّب من الشعب المصري.

فصدرت في مصر أول صحيفة هي (التنبيه) عام (1213هـ، 1790م) وكانت تصدر باللغة العربية، فكان ذلك أول اتصال حضاري بين مصر وأوروبا، بل عدَّه كثيرون بداية عصر النهضة في مصر، ورفضه آخروه باعتبار أن النهضة كانت قائمة في مصر قبل قدوم الفرنسيين[1].

وبدأت بوادر نهضة أدبية وعلمية جديدة على يد رفاعة الطهطاوي وزملائه الذين تلقوا العلم في أوروبا، ولكن هذه النهضة كما وصفها محمد حسين هيكل (كانت تحيطها ظلمات ليل طويل، لذلك كان سريان نورها ضئيلاً)[2]، ومع ذلك استمرت في طريقها رغم عوامل الضعف التي

(1) انظر (ودخلت الخيل الأزهر) (المقدمة)، فصل الثورة الصناعية ص 301.
(2) مقدمة الشوقيات (1/ 3).

كانت تعتريها بين آونة وأخرى نظراً لتركة الإرث الثقيلة التي ناء بها كاهلها.

وجاء عصر الخديوي إسماعيل فجرى في عروق تلك النهضة ماء القوة والنضوج كما ألهبتها وزادت اشتعالها ثورة عرابي عام (1881)، وكان ذلك فيما بعد منتصف القرن التاسع عشر حيث قويت عوامل النهضة وبدأ الشعب يحس بكيانه، فقاوم الضغط الذي يعانيه من المستعمر.

ارتفع صوت الصحافة، وصارت ميداناً للرأي السياسي والاجتماعي، ونفض الكتاب عنهم أوزار السجع والصناعة واتجهوا إلى الموضوعات المجدية.

وتم إنشاء دار الأوبرا في عهد الخديوي إسماعيل، وبرز شعراء كثيرون مجيدون اتجهوا بالشعر للأغراض الحيوية التي تخدم أغراضاً شريفة، كما يقول الدكتور محمد حسين هيكل (ذات آثار مرموقة في الشعر في هذه الحقبة)[1]، فقد برز صالح مجدي، وعبدالمطلب، وإسماعيل صبري، ومحمود سامي البارودي، الذي بدأ تيار المحافظين في الظهور على يديه، وأصبح ذلك ميزة لهم لا نظير لها في تاريخ الأدب المصري الحديث، فقد ارتقى مستوى الألفاظ، ونبذ الضعف والركاكة جانباً، ثم برزت في الساحة الثقافية

(1) مقدمات الشوقيات (1/ 3).

(مدرسة المجددين) وكان على رأسها محمد عثمان جلال، وكانت مدرسة قائمة على التأثر بالثقافة الغربية التي ورثتها من حملة نابليون على مصر، دعا زعيمها محمد جلال إلى خلع أثواب العربيـــة الفصحى، واستبدالها بالعاميـــة كأداة للتعبير، وكان الهدف من وراء ذلك فصل مصر عن الأمة العربية، وهي الدعوة التي ردَّدها بحذر فيما بعد الدكتور طه حسين في كتابه (مستقبل الثقافة في مصر)، وكذلك منصور فـــهمي وسلامة موسى باعتبارها حالة خاصة، وكان من أبرز سمات تلك المدرسة نقل وترجمة قصص الأدباء الفرنسيين مثل موليير ولافونتين إلى العربية.

ومن هنا يتضح الترابط الوثيق بين تلك الآثار الأدبية، وبين ما يدعو إليه زعيم المجددين، مما أدى إلى اختلاف معركة الانتماء الثقافي بين هذين التيارين «تيار المحافظين» المناصر للقديم و«تيار المجددين» المناصر للتجديد.

وكان من نتيجة ذلك الصراع أن أدى إلى ظهور مدرسة المعتدلين التي سلكت طريقاً وسطاً في المنهج بين إفراط المجددين، وتفريط المحافظين الذين تمسكوا برفض مظاهر القديم، ولكنهم لم يرفضوا الأفكار الجديدة التي لا تُخرج أدبهم عن مساره العربي، فظهرت في أشعارهم صفات القديم، كالمعارضات والوقوف على الأطلال وابتداء الشعر بالنسيب، كما برزت سمات التجديد،

كالقصة والمسرحية والملحمة والتجاوب مع الحياة العامة فأصبحوا في منزلة بين المنزلتين. وكان شوقي أبرز شعراء هذه المدرسة، وسار على دربه شاعر النيل حافظ إبراهيم، وشاعر القطرين خليل مطران.

وقد ظهر هذا الاعتدال واضحاً في شعر شوقي وترك آثاره التي لا تخطئها العين أو يعمى عنها الفكر.

ولا شك في أن هذا الاعتدال كان وليد تلك الظروف الأدبية والسياسية والاجتماعية المتصارعة في عصر سبقه، واعتبر عصره امتداداً له نظراً لتواصل الحالة السياسية بشكل أوضح.

إن ديوان شوقي مملوء بالمعارضات الشعرية للشعراء القدماء كأبي تمام، والبحتري، وابن زيدون، والبوصيري. والقصائد التي تبدأ بالنسيب، وهو في ذلك مدفوع بعاطفة المحافظة على القديم التي استوحاها من بدايته الدراسية في (مدرسة المبتديان) حيث يغلب على تلك المدرسة منهج التعليم الديني الذي ترك آثاره في ذهن شوقي وعقله الباطن رغم قصر المدة التي أمضاها في الدراسة والتعلم بهذا الأسلوب.

كما نجد مظاهر التجديد عند شوقي ماثلة للعيان في نهجه منهجاً جديداً في الغزل حيث يقول:

خـــدعـــوهـــا بقـــولهـــم حسنـــاء
والغـــوانـــي يغـــرهـــنّ الثنـــاء

وفي نظمه الشعر على ألسنة الحيوانات والطيور اقتداء بالشاعر الفرنسي لافونتين وكذلك (هوجو) في ديوان (أساطير القرون) كما ترجم قصيدة (البحيرة) عن اللغة الفرنسية للشاعر الفرنسي (لامارتين).

كما نظم الملحمة كما يظهر ذلك في ملحمته (دول العرب وعظماء الإسلام) ليصبح أول شاعر عربي يطرق أبواب المسرحية الشعرية حيث نظم مسرحية (كليوبترا) ومسرحية (قمبيز) حيث استوحى حوادث هاتين المسرحيتين من التاريخ المصري القديم، ونظم مسرحية (مجنون ليلى)، ومسرحية (عنترة) المستوحاة حوادثهما من التاريخ العربي في الجاهلية والاسلام.

وهو في هذا مدفوع بتأثير الجانب الثاني من ثقافته لكونها جزءاً من التعليم المدني الذي تلقاه في الثانوية التجهيزية ثم في كلية الحقوق بمدينة (مونبلييه) الفرنسية، وما اكتسبه من ثقافة متنوعة في رحلاته التي طاف فيها فرنسا وانجلترا وأسبانيا حيث وقعت عينه خلالها على أدب عظماء الأدباء في تلك الأقطار.

ومن هنا تبرز عظمة شوقي الأدبية حيث ملك القدرة على

الجمع بين هذين المنهجين جمع اعتدال دون أن يطغى منهج على منهج أو يظهر عليه ويمحو أثره.

ولهذا فليس مستغرباً أن يكون شوقي رائد الشعر العربي الحديث، وأن تصل الأمور حدّاً دفع بكثير من شعراء وأدباء ونقّاد عصره إلى تسميته (أمير الشعراء) وإن كان للسياسة دور في ذلك.

فشوقي هو الذي أعاد للشعر نضارته. وأعاده إلى مكانته بعد انقطاع بين عصره وعصر أبي الطيب المتنبي فصال وجال صولة العارف في كل فن وغرض شعري فمدح ورثى ووصف، وتغزل وقال الفخر كما جدد فنظم الملحمة، والمسرحية الشعرية.

هذا باختصار أثر ـ العصر ـ أما أثر القصر فسوف يأتي تفصيله لاحقاً.

* * *

الأسرة والمولد

في هذا العصر المضطرب سياسياً وفكرياً واجتماعياً ولد رائد الشعر الحديث، و(أمير الشعراء) أحمد شوقي سنة (1868م) بباب إسماعيل في مدينة القاهرة، ونشأ في أسرة تمازجت فيها الجنسيات وتخالطت فيها دماء الشعوب.

فوالد شوقي كان كردياً ممن ينتشر أبناء جلدته في إيران وتركيا وسورية والعراق، ولهذا يقول شوقي عن نفسه (سمعت أبي يرد أصلنا إلى الأكراد فالعرب)[1]، كما أن جده لأبيه أحمد شوقي (أول من قدم مصر من تلك الأسرة، إذ قدِم شاباً وهو يحمل رسالة من الجزَّار إلى والي مصر (محمد علي باشا) فأدخله في معيته فترقى في المناصب حتى أصبح أمين عام الجمارك في عهد سعيد باشا)[2].

أما جده لوالدته فهو تركي الجنسية يسمى (أحمد حليم النجدة)[3] نسبة إلى قرية بالأناضول تسمى «نجدة» وقدم مصر شاباً في عهد إبراهيم باشا بعد جد شوقي لوالده فزوجه إبراهيم باشا من جارية عنده «جدة شوقي» اسمها (تمراز)

(1) الأعلام (1/ 133).

(2) وطنية شوقي، ص71.

(3) شوقي شاعر العصر الحديث، ص9.

ولم تكن مصرية الأصل، وإنما أتى بها من بلاد المورة، فعاشت في كنف إبراهيم حتى زوَّجها أحمد حليم النجدة، وقد مجَّدها شوقي في رثائه لها قائلاً:

تبنـــاك الملـــوك فكنـــت منهـــم

بمنـــزلـــة البنيـــن مـــن البنـــات

ولهذا كان شوقي يقول عن نفسه (أنا عربي تركي يوناني جركسي) ولا شكّ أن تخالط الجنسيات، وامتزاج الدماء كان سبباً في بروز شوقي وتفوقه لأنه جمع خصائص العنصرين العربي واليوناني، وهما العنصران المشهوران بالشعر فأهلته تلك الخصائص جميعها، ليكون شاعراً ممتازاً)[1] كما يقول الدكتور شوقي ضيف.

* * *

(1) شوقي شاعر العصر الحديث، ص9.

نشأته، ودراسته

فتح شوقي عينيه أول ما فتحهما على حياة القصور الخديوية، وعلى ما فيها من بذخ وترف ولهو لأنه ولد (بباب إسماعيل) كما يقول في هذا البيت :

أأخــون إسمــاعيــل فــي أبنــائــه

ولقــد ولــدت بيــاب إســماعيــلا.!

وذلك لأنه يعيش في كنف جدته اليونانية التي تعيش بدورها في قصر الخديوي إسماعيل، فكان طبيعياً أن تؤثر تلك الحياة المترفة الناعمة في هذا الطفل الذي لا يزال طري الإهاب.

ومما يؤكد بذخ القصور وترفها، وشدة ارتباط شوقي بذلك منذ الصغر تلك الحادثة التي تقول (إن جدته دخلت به يــوماً على إسماعيل، وهو في الثالثة من عمره، فنظر إسماعيل إليه فوجد نظره مشدوداً إلى السماء لا يسقط على بسيط الأرض، ولا ينزل اليها، فطلب بدرة من الذهب فنثره على الــبساط عند قدميه فتحول شوقي إليه، وأخذ يجمعه ويلعب به. فقال اسماعيل لجدته: إصنعي معه مثل ذلك حتى يتعود النظر الى الأرض، فأجابت إجابتها المشهورة: هذا دواء لا

يخرج إلاَّ من صيدليتك فقال: جيئي به إليّ متى شئت)[1].

وهكذا تقلّب شوقي في أحضان النعيم، وأعطاف الترف صغيراً، وبقي على اتصال وثيق بتلك الحياة كبيراً حتى فارق هذه الحياة الفانية.

كانت تلك الحياة التي تنزع إلى حياة الطبقة «الأرستقراطية» ذات سبب مباشر في ابتعاده عن الإحساس بمعاناة الشعب المصري في بداية حياته، مما جعله لا يحس بآلام ذلك الشعب، ولا يحلم بتحقيق آماله، ولذا أصبح شعره في بداياته بعيداً كل البعد عن أن يكون منبراً للشعب، ووسيلة تؤدي رسالته إلى الحاكم، ليستمر شوقي منفياً عن حياة الشعب حتى نفي بعد ذلك إلى الأندلس، فاقترب في منفاه من همومه، وأصبح يعيشها مثله، وربّ ضارةٍ نافعة.

وقد بدأ شوقي أولى خطواته في طريق التعليم الطويل عندما أدخله والده أحد الكتاتيب التي تدرس التلاميذ صغار السن على الطريقة القديمة التي تقوم على تدريس الدين واللغة العربية، حيث تولى تعليمه أحد العلماء واسمه الشيخ (صالح) ثم تحول بعد دراسته في الكتاتيب إلى الدراسة المنتظمة في مدرسة (المبتديان) ثم التحق بالثانوية (التجهيزية) فنال شهدتها، ولم يتجاوز عمره الخامسة

(1) شوقي شاعر العصر الحديث، ص10.

عشرة فحصل على (الشهادة المجانية مكافأة له)[1] على هذا التفوق والذكاء الذي تجاوز فيه من هم أكبر منه سناً، ليلتحق بعد ذلك بكلية الحقوق الإدارية لدراسة القانون بناءً على رغبة والده، ولكنه في النهاية استجاب للرغبة التي تحدثه بها نفسه، ويتجاوب معها فكره وعقله، فتحول عن دراسة القانون إلى دراسة الترجمة. فجمع بين نوعين من التعليم.

الأول: التعليم الديني في الكتاتيب، الذي كان الأزهر مشرفاً عليه، وحامياً له.

الثاني: التعليم المدني الذي استمدَّ ثقافته ومناهجه عن طريق التأثر والانبهار بالحضارة الأوروبية التي خلفها نابليون بعد عودته الى فرنسا، فكان لها مناصرون حافظوا عليها عن طريق إدخالها كجزء من منهج التعليم المدني.

وقد شهدت كلية الحقوق والإدارة بداية محاولاته الشعرية متأثراً في ذلك بالعلوم التي يدرسها حيث نظم أرجوزته التي يقول فيها:

أفريقيا قسم الوجود
في شكله شبه العقود

وهي وإن كانت بداية ضعيفة، إلاَّ أنها جديرة بالملاحظة

(1) شوقي شاعر العصر الحديث، ص11.

والتدوين، لأن من شأن البدايات أن تكون ضعيفة.

بعدتخرج شوقي من كلية الحقوق والادارة عام (1887م)، وعمره عشرون عاماً، وحصوله على الإجازة في الحقوق، أرسله الخديوي توفيق لمواصلة الدراسة في مجال الحقوق في فرنسا لمدة أربع سنوات، حيث التحق بجامعة (مونبلييه) إلاَّ أنه وجد الحياة في تلك المدينة غريبة عنه منافية لعاداته وتقاليده وهو الرجل الشرقي، رغم أنه كان يعيش في قصور الخديوي، إلاَّ أن بقايا من مشاعر التقليد والمحافظة لا تزال تعيش حيَّةً في أعماقه، ولهذا طلب من الخديوي توفيق أن يسمح له بالعودة إلى مصر، بعد أن أمضى في تلك الجامعة سنة واحدة، إلاَّ أن الخديوي رفض طلبه بالعودة حتى ينهي دراسته، فأكمل سنته الدراسية الثانية على مضض، وسافر مع طائفة من زملاء الدرسة في رحلة إلى إنجلترا لتمضية العطلة الصيفية من أجل الترويح عن النفس من عناء الدراسة والبحث، ومن أجل أن يدعم شوقي ثقافة الكتب بثقافة العين عن طريق التمتع بمناظر الطبيعة الخضراء، والآثار التي تزخر بها الحضارة الأوروبية، والتي لم تكن تسمح له الدراسة بالاطلاع عليها. حيث كان يمضي سحابة يومه الدراسي في الجامعة أو بالانكباب بين دفتي الكتاب في مقر إقامته.

وعندما بدأ شوقي سنته الدراسية الثالثة في باريس التي

انتقل إليها من مونبلييه أصيب بمرض أشرف منه على الهلاك، وعند تماثله للشفاء نصحه الأطباء بالسفر إلى أفريقيا علّه يسترد صحته تحت أشعة شمسها، فهي أكثر ملاءمة له، فسافر إلى الجزائر التي ما زالت تئن تحت وطأة الاستعمار الفرنسي، فمكث فيها أربعين يوماً كان لها دور في تعميق الحس الوطني لديه، ثم عاد إلى باريس لإكمال دراسته في الحقوق، فحاز على الشهادة الجامعية في آخر السنة الدراسية الثالثة، مما يؤكد مرة أخرى مدى ما يتمتع به شوقي من ذكاء ساعده على اختصار مدة الدراسة التي لا ينتهي منها سواه إلاّ إذا أكمل أربع سنوات.

لذا استغلَّ شوقي سنته الرابعة في فرنسا متنقلاً في أنحائها حيناً، ومتردداً على مسارح باريس وأماكن اللهو فيها، وكذلك دور التمثيل حيناً آخر، مما يؤكد أنه بدأ يألف الحياة على الأسلوب الأوروبي بعد أن كان لا يرتاح إليها في أولى سنواته الدراسية.

وقد أدى اطلاعه على حياة الليل في باريس إلى ترسيخ صفة الانفتاح في سلوكه، واتساع ثقافته وشموليتها حيث ظهرت آثارها واضحة جلية في شعره، خاصة في غرضي الغزل والوصف (كما وقف على آثار كبار الكتّاب الفرنسيين، وانكبَّ عليها قراءةً وبحثاً، وحاول التشبّه بلافونتين في أمثاله، ودي موسيه في صراحته المؤلمة،

وبلامارتين في غزله)[1]، كما يرى د. حنا الفاخوري، وكان ذلك بسبب براعته في اللغة الفرنسية، قراءةً وكتابةً، إلى حد التبحر فيها، حتى فاق في هذا الميدان كثيراً مع أبنائها، فترجم قصيدة البحيرة للامارتين، ونظم الشعر القصصي على ألسنة الحيوانات والطيور، كما فعل لافونتين وسار على درب فيكتور هوجو في ديوانه أساطير القرون الأولى، وأدخل الشعر التمثيلي في الشعر العربي.

وعندما أنهى شوقي سنته الرابعة في التطواف، وقراءة الآداب الأوروبية، عاد إلى مصر تلك الأرض التي كاد حبها الذي ملك شغاف قلبه أن يفقده الرشاد بعد طول فراق لتبدأ صلته بالقصر على نحو جديد، حيث عاد إليه شاباً مكتمل الرجولة بعد أن كان قد غادره مراهقاً، وقبل ذلك عاش في أرجائه طفلاً.

عاد لكي يوظّف رجولته، وثقافته، ومعرفته لخدمة القصر الذي بذل كل غالٍ في سبيل تكوينه، وإعداده لكي يكون شاعر القصر لا الشعب، وهو الهدف الذي كان الخديوي توفيق يطمح إليه عند إرساله لفرنسا، وحان الآن قطف ثماره، لولا أن الموت عاجل الخديوي توفيق قبل لحظة القطاف عام (1892م)!!!

(1) تاريخ الأدب العربي، ص975.

في القصر بعد العودة

عاد البلبل إلى دوحه مغرداً بعد هجرة امتدت أربع سنوات في فرنسا لم ترَ عيناه فيها أرض الكنانة ليكحل أهدابهما بترابها. لا يربطه بها سوى ذلك الحب الجارف، والشوق الذي يملأ قلبه ويكاد أن يطير به إليها على جناح غمامة بيضاء، وهو يردد قول الشاعر:

سقى الله أرضاً لو ظفرت بتربها
كحلت بها من شدة الشوق أجفاني

عاد شوقي شاباً بعد أن نهل وعل حتى الثمالة من ينبوع الثقافة الغربية خيرها وشرّها، عاد شاعراً مكتمل الشاعرية، ومثقفاً تحني الثقافة رأسها احتراماً له، يخطو نحو هدفه ويسمو إلى غايته من تلقاء نفسه، واستجابةً لرغبة فؤاده لا نزولاً عند إرادة تفرض عليه من خارج شغاف قلبه تأباها إرادته، ويرفضها هواه، وكانت سنة العودة (1891م).

وقد أقام شوقي بعد عودته عند والده بحي الحنفي، وترك القصر للحاكم الجديد، وذلك لأن صاحب الفضل عليه، وولي نعمته الذي طوَّق عنقه بالجميل والعرفان، الخديوي توفيق قضى نحبه، وقام مكانه الخديوي الجديد (عباس حلمي) الذي أهمل شأن شوقي، ولم يلق إليه بالاً،

بل زاد في الإعراض عنه إلى حد كادت معه المساعي المبذولة من أجل الصلح بين الخديوي عباس وشوقي أن تبوء بالفشل، كما يصوّر ذلك داود بركات قائلاً:

(إن الخديوي عباس كان يهمل شوقي بعض الإهمال لاعتقاده، بل لأنهم أدخلوا في نفسه أن أحمد شوقي شاعر فقط، وأنه بحاجة إلى رجل سياسي لما كان بينه وبين الإنجليز من الكفاح والجلاء. فاجتمع لإزالة ذلك الوهم من صدره كلٌ من بطرس غالي، وقد كانت تربطه به نزعة الأدب والأدباء، وبشارة تقلا صاحب جريدة الأهرام، ومصطفى كامل.

كان بطرس يطلب من الخديوي أن يسمح له بتوظيف شوقي في الخارجية بضعفي مرتبه الذي كان يتناوله من قسم الترجمة في السراي، وكان بشارة تقلا يعرض على سموه هذا العرض ليوليه تحرير لأهرام، وتأييداً لذلك وضع شوقي في مكانة من الأدب وإمارة الشعر، إلى أن قرَّبه الخديوي وأناط به كثيراً من المهام)[1].

المهم أن الصلة قد توثقت بين الخديوي عباس والشاعر، وازدادت تلاحماً بعد إعراض وصدود مما جعل شوقي يتفانى في خدمته وكسب رضاه، الأمر الذي وجه

(1) شوقي شاعر العصر الحديث، ص16 (بتصرف).

لسانه في تلك الفترة إلى التغني بخصال الخديوي وفضائله، والإعراض عما سواه، وذلك لأن الخديوي عباس حجب شوقي بتلك الثقة، ومنعه من أن يكون شاعر الشعب، بل اصطفاه لنفسه لينسج له من شعره ثياب المجد والعظمة رغم أن الخديوي عباس كان أقرب من الحكّام السابقين إلى مواقف الشعب[1].

ولذا أصبح شوقي نائباً عن الطبقة الشعبية وما تعانيه من نكد وبلاء وآلام، وتطورت ثقة الخديوي به حتى ولاه رئاسة قلم الترجمة في القصر، وأرسله إلى جنيف سنة (1894م) ليحضر مؤتمر المستشرقين، وهناك أنشد قصيدته المشهورة كبار الحوادث في وادي النيل ومطلعها:

همت الفلك واحتواها الماء
وحداها بمن تقل الرجاء

وانتهز شوقي فرصة وجوده هناك فسافر إلى بلجيكا من أجل إشباع هواية حب الاستطلاع عنده وليمتع عينيه بسحر أوروبا وروعة جمالها، وخلابة طبيعتها.

عاد شوقي بعد تلك الرحلة الى مصر لتتعمق جذور الصلة بينه وبين الخديوي عباس، وتزداد رسوخاً، (ويصبح شاعر البلاط نافذ الكلمة، مسموع الرأي)، كما يقول شوقي

(1) الشوقيات (المقدمة).

ضيف[1]، وأمضى حياته بجانب الخديوي عباس حلمي يوالي من يواليه، ويعادي من يعاديه، حتى ولو كان ذلك من أصدقائه الأوفياء، بل نراه يحجم عن مشاركة الشعب حزنه وأساه بعد حادثة دانشواي (لأن هذا يعد خروجاً عن سياسة القصر، وإرادة «الخليفة» لأنه يحلِّق بجناح غير طليق، وهذا ما جعل شعره قبل المنفى أقل وطنيـــة إن لم يكن معدومهاعنـــه بعد النفي)[2]، كما يقول الدكتور الحوفي.

ولأهمية حادثة دانشواي فلا بد من الإشارة إليها، حيث مرَّت مجموعة من الجنود الإنجليز بقرية دانشواي سنة (1906م)، وأخذوا يصطادون الحمام الداجن فاعترضهم الأهالي خوفاً من إتلاف المحصول الزراعي وحرقه، وهو ما حصل بالفعل، وكان من نتيجة تلك الرحلة أن هام أحد الجنود الإنجليز على وجهه في الصحراء فأصيب بضربة شمس فمات.

حاكم اللورد كرومر أهالي القرية، وأعدم أربعة منهم، وعاقب البقية بوحشية فشرد بعضاً وسجن بعضاً، مما أدى إلى ثورة شعبية، إلاَّ أن شوقي لم يتفاعل معها خوفاً من إغضاب الخديوي عباس المغلوب على أمره مدة عام كامل لينظم بعد ذلك قصيدته:

---

(1) شوقي شاعر العصر الحديث، ص17.

(2) وطنية شوقي، ص84.

يـــا دنشـــواي علـــى ربـــاك ســـلام
ذهبـــت بـــأنـــس ربـــوعـــك الأيـــام

ويبدو أن شوقي أراد أن يكفّر عن ذنبه فقال تلك القصيدة تقرباً إلى الشعب، إلاّ أن هذا التصرّف لا يُعد من المشاركة الوطنية في شيء، لأن الوطنية تتطلب مشاركته في الحادثة والـــتعبير عن موقفه الـــوطني لحظة وقوعها، ولكن ماذا نراه فاعلاً وهو مغلول اللسان؟

ويؤكد هذا الرأي موقفه من اللورد «كرومر» حين انتقد الخديوي عباس فثار شوقي مدافعاً عنه، مع أن حادث دانشـواي أفظـع وأشنـع مـن خطـاب كـرومـر، وتعـرضـه «لإسماعيل» وعائلته، بل نراه يؤكد ابتعاده عن الشعب بهجائه للزعيم الوطني أحمد عرابي بعد عودته من المنفى عام (1901م)، حيث يقول:

صغـار فـي الـذهـاب وفـي الإيـاب
أهـــذا كـــل دأبـــك يـــا عـــرابـــي؟

ويموت صديقه مصطفى كامل زعيم الحزب الوطني، والذي ساعده في إعادة الحرارة إلى علاقته مع الخديوي عباس، ورغم حبه له وتقديره على المستوى الشخصي إلاّ أن الموقف السياسي فرض عليه الصمت لأن مصطفى كامل خصم لدود للخديوي الذي يراه مصطفى عدواً للشعب.

(فليس بمعقول أن يرثيه إلاَّ بعد فوات الأوان لكي يرد على من يلومونه بصمته)[1]. كما قال د. شوقي ضيف.

وهكذا يأتي شوقي متأخراً في المواقف الوطنية التي تتطلب منه أن يكون مبادراً، نظراً لدور الشعر آنذاك في التعبير عن المشاعر الوطنية أمام الأحداث.

أما الحفلات الخاصة وما يدور فيها كل ليلة داخل أروقة القصر فهي أولى بالاهتمام من حادثة دانشواي، وموت مصطفى كامل، وعودة عرابي، لا لشيء إلاَّ لأن الخديوي يفضل تلك الحفلات على مشاركة الشعب أحزانه، ولهذا فإن شوقي لا يجد حرجاً في حضور الجلسات بعد أن استطاعت حياته في أوروبا أن تقضي على صفة الخجل عنده، وتؤجل عودة المحافظة إلى حين من الدهر.

لقد أسرف شوقي في وصف حياة القصر اللاهية، سواء بالإكثار من نظم القصائد، أو وصف كل رموز تلك الحياة داخل عروق القصيدة الواحدة.

كما نلاحظ هذا الاتجاه في جميع قصائده التي نظمها في وصف هذه الحفلات نزولاً عند رغبة سيده أولاً، وشغفه بها ثانياً، ليظل شوقي شاعر القصر وبلبله المغرّد. لم تفتر العلاقة بينهما يوماً كما كانت الحال بسميه «أبي الطيب

(1) شوقي شاعر العصر الحديث ص 21.

المتنبي» مع سيف الدولة حيث فرقتهما الأيام، ووشايات الحسَّاد.

لقد أراد شوقي أن يكون ظلاً لعباس حلمي، وكان طبيعياً أن يزول الظل بزوال صاحبه حيث عزل عباس عن العرش[1] وهو في تركية، وولى مكانه «حسين كامل» فحاول شوقي أن يتقرب منه فقال مهنئاً ومستعطفاً:

يـا أهـل مصـر كلـوا الأمـور لـربكـم
فـــالله خيـــر مـــوئـــلاً ووكيـــلا
أأخـــون إسمـــاعيـــل فـــي أبنـــائـــه
ولقـــد ولـــدت ببـــاب إسمـــاعيـــلا

ويرى الدكتور شوقي ضيف في موقف الشاعر حينما قال تلك القصيدة (إنها تبدت نفسيته المضطربة، فبينما يحاول أن يرضي حسيناً نراه يقول: «**إن الرواية لا تتم فصولاً**»[2]).

وقد كانت تلك القصيدة سبباً في نفي شوقي عن مصر، كما نفي عباس وهو متغيب عنها، حيث رأى الخديوي الجديد حسين كامل أنه يعرض به، ويتهمه بالتواطؤ مع الإنجليز ضد عباس الذي كان يميل إلى تركية، كما بدا

---

(1) يعود السبب في ذلك إلى رفض عباس إعلان الحماية البريطانية على مصر عام (1913م).

(2) شوقي شاعر العصر الحديث، ص 31.

للإنجليز أنه بدأ يبتعد عنهم ويقترب من تأييد المطالب الوطنية المناهضة للاستعمار، ولذا طالت يد الإبعاد كل من كان ذا علاقة وطيدة بالخديوي السابق.

وكان طبيعياً أن يكون شوقي ضحية هذا الموقف السياسي الجديد، فخُيِّر في أي البلاد يختارها مقراً لمنفاه الجديد، وكان من حظ دنيا الأدب ومن حظ شوقي فيما بعد أن يقع اختياره على «الأندلس» التي يسميها العرب (الفردوس المفقود) لتكون هي المنفى، وكان ذلك عام 1914م.

ومن هنا بدأت مرحلة أخرى من مراحل حياة شوقي التي تستحق أن تسمى (مرحلة التخلص من القيود).

* * *

في الأندلس

أعلن الإنجليز في مصر أن شوقي شخص غير مرغوب فيه، وغير مسموح له بالتواجد على أرض مصر، وذلك لأنه حينما أحسَّ بجفاء الخديوي حسين كامل له، ولا ذنب له إلاَّ علاقته الوثيقة بالخديوي المخلوع، أخذ يتقرَّب إلى الشعب، ويحسّ بآلامه.

كما أدرك شوقي أن لا واقي له بعد الله إلاَّ الشعب المغلوب على أمره فقط، لذا اتجه إلى استغلال شاعريته في فضح أساليب المستعمر الإنجليزي، وخططه التي يموه بها على الشعب، والتي يهدف من ورائها إلى تحطيم إرادته، وإطفاء نار الوطنية التي تزداد كل يوم اشتعالاً، وقد ساعده في ذلك كون الخديوي عباس يسير في ذلك الاتجاه الذي يصب في مصلحة الشعب، وهذا ما ساعد شوقي على الحصول على ثقة الشعب به متناسين له عزوفه عند عودته من فرنسا عن الاحساس بآلامهم.

وقد خيّر الإنجليز شوقي في اختيار أرض المنفى الجديد، فكان أن اختار (الأندلس) ذلك الفردوس المفقود الذي شهد في عصور خلت أسعد أيامه، وبلغ القمة في نهضته، وازدهاره، وفي أمنه ورخائه على أيدي الفاتحين

المسلمين، كطارق بن زياد، والخلفاء مثل:عبدالرحمن الداخل، وعبدالرحمن الناصر، وأحفادهم الذين أكملوا المسيرة وأحسنوا السيرة . قبل أن تبدأ شمس المجد في الانحدار.

واعتقد أن اختيار شوقي للأندلس لتكون منفاه الجديد يعود إلى أنه أراد أن يدعم ثقافته التي اكتسبها عن طريق الدراسة في فرنسا والتجوال في بعض الدول الأوروبية بثقافة جديدة.

وحيث أن الحس الوطني بدأ ينبض في قلب شوقي فإنه أراد أن يسقي نبتة الوطنية التي بدأت تنمو بروافد من ثقافة عربية وإسلامية يشهد بها كل جزء من أرض الأندلس الخضراء.

وقد غادر شوقي ميناء بور سعيد في (1914م) متجهاً إلى أسبانيا، ولما وصلها أقام في منتجع (فلقدريرا) وجعله مقره الدائم، إلاَّ أنه أخذ في التجول والترحال ذات اليمين وذات الشمال، لأنه رأى نفسه في تلك البلاد أشبه بالطائر الذي تحرر من أغلال القفص، فانطلق يرفرف بجناحيه بعد أن ذاق طعم الحرية فرحاً.

وهكذا أخذ شوقي، الذي تحرر من قيود القصر التي أدمت قلبه قبل قدميه، فرأى نفسه حراً في تلك البلاد يذهب متى شاء ويعود متى شاء ولا شيء ينغّص عليه طعم حياة

المنفى إلاَّ التفكير في العودة إلى الوطن الأم، وذلك ما لا سبيل إليه في هذه المرحلة.

تنقَّل شوقي بين مدن الأندلس التي شهدت الحضارة العربية الإسلامية، فزار طليطلة، وأشبيلية، وغرناطة، وسرقسطة، وقرطبة، وضاحيتها الزهراء، تلك الحواضر التي شهدت أيام العز التي تنقَّل وتقلَّب بين أحضانها الخلفاء الأمويون، ومن بعدهم ملوك الطوائف أمثال: بني جَهْور، وبني عباد، وبني الأفطس. وسواهم.

كما وقف على آثار هؤلاء الحكَّام التي وقفت شامخة بعد زوال ملكهم تتحدى الزمان، وتحارب الفناء، وكأنها أرادت أن تحدث الأجيال اللاحقة بما صنعته الأجيال السابقة لعلَّ وعسى أن يفعل الأبناء ما فعل الآباء.

لقد رأت عينا شوقي في تلك الآثار بقايا مجد زائل وأطلال عُروشٍ ثَلت، وعظمة سادةٍ عفَّى عليها الزمن، ولو كانت تلك الآثار تملك القدرة على الكلام لروت لشوقي سيلاً عرماً من القصص والحوادث والحكايات التي تصوّر ما اتصف به بناة هذه الحضارة من شجاعة، وكرم، ونبل، ووفاء، وحياة اجتماعية باذخة، وحياة أدبية راقصة.

إلاَّ أن شوقي استمع إليها وهي خرساء صامتة، فكان تعبيرها أبلغ مما لو تكلَّمت، أدمى فؤاده حزناً وملأه ترحاً

وشجناً، وتدافعت الدموع من مقلتيه، وانشغل فكره بآلاف من الصور التي أوحت بها إليه تلك الآثار الشامخة، فتسابق جوادا الشعر والنثر على لسانه ليصورا لمن لم يشاهد تلك الآثار ما يعانيه وما يكابده في تلك الغربة إحساسه بها واصفاً ما تعانيه تلك الشواهد بعد أن رحل مشيّدوها حيث يقول واصفاً:

(طليطلة تطل على جسرها البالي، وأشبيلية تشبل على قصرها الخالي، وقرطبة منتبذة ناحية البيعة الغرّاء، وغرناطة بعيدة مزار الحمراء)[1].

وكأني بشوقي في تلك اللحظة قد استحضر في قلبه ذلك المشهد الحزين لآخر ملك عربي[2]. خرج من الأندلس عندما سلم «غرناطة» وهو يبكي، وأمه تخاطبه وتقول له:

إبـك مثـل النسـاء ملكـاً مضـاعـاً
لـم تحـافـظ عليـه مثـل الـرجـال

كما استحضر ذهنه حالة مماثلة عاشها قبله الشاعر العباسي الكبير «البحتري» الذي مرَّ قبله بفترة لا تقل عن «ألف سنة» بحالة مماثلة للحالة التي يعيشها شوقي حالياً، وذلك حينما خرج من بغداد حزيناً على كأسه الذي سكب

(1) الشوقيات (2/ 44).

(2) هو أبو عبد الله بن الأحمر وكان ذلك سنة (897هـ).

على الثرى، وأيامه التي تلوث صفاؤها بمقتل الخليفة المتوكل عام (248هـ). وأخذ يحثّ خطاه نحو قريته منبج فإذا به يشاهد وهو في رحلته (ايوان كسرى) وهو بقية من أطلال تتحدث عن عزٍ زائل بزوال دولة الأكاسرة التي تحطَّمت على يد المسلمين بعد معركة القادسية الخالدة سنة (14هـ) حيث رأى البحتري أنه والإيوان يعيشان حالة واحدة سجَّلها في رائعته السينية حيث يقول:

صنت نفسي عما يدنس نفسي
وتنزَّهت عن جدا كل جبس

أقول لقد استحضر شوقي حالة البحتري وموقفه من الإيوان فرأى نفسه أمام آثار الأندلس أحق بالقول، لأن البحتري شاهد آثار قوم ليسوا له بقوم، وما دينهم له بدين، فكيف به والآثار التي يشاهدها آثار قوم يجتمع معهم في النسب واللغة والدم والدين.

لقد رأى شوقي أن الموقف يفرض عليه واجباً يجب الوفاء به لأنه حفيد هؤلاء، ولهذا يقول:

(وكان البحتري رفيقي في الترحال، وسميري في الرحال، والأحوال تصلح للرجال)[1].

ومن هنا بدأ شوقي ينقل لنا مشاعره وأحزانه، متتبعاً

(1) الشوقيات (1/ 44).

خطى البحتري حيث يقول: (وأنشدت فيما بيني وبين نفسي:

وعظ البحتري ايوان كسرى
وشفتني القصور من عبد شمس

ثم جعلت أروي القول على هذا الروي، وأعالجه على هذا الوزن حتى نظمت على هذه القافية المهلهلة)[1].

وفيها يقول:

اختلاف النهار والليل ينسي
أذكرا لي الصبا، وأيام أنسى

حيث يستبد به الوجد والشجن بسبب فراقه مصر فيقول:

وسلا مصر هل سلا القلب عنها
أو أسى جرحها الزمان المؤسي

ليخرج بعد ذلك إلى غرضه الأساسي وهو رثاء الأندلس فيقول:

من لحمراء جللت بغبار الدهـ
ـر كالجرح بين برى ونكس

كما يصور لنا حالة من يقف على هذه الآثار والحزن والشعور بالانكسار يلفانه ببرديهما فيقول:

---

(1) الشوقيات (2/ 45).

لا ترى غير وافدين على التاريخ

ساعين في خشوع ونكس

وليس المجال الآن للنقد والتحليل إذا لبسطت القول في تلك الرائعة، وما يحتويه كل بيت منها من معانٍ سامية تدل على عاطفة صادقة يؤجج لهيبها الدين أولاً، والاتجاه الوطني الذي بدأ ينمو ويترعرع في قلب شوقي بعد طول انطفاء.

كما وجد شوقي نفسه في بعض الأوقات التي لا يزور فيها أثراً إسلامياً خالداً خاصة إذا جنَّ الظلام وحيداً فلا صديق يؤنس وحدته، ولا رفيق يبدد وحشته، فجعل الكتاب له خير صديق ورفيق.

أخذ شوقي يقطع أوقات فراغه بالقراءة في كل مجال، وهو ما لم يكن ميسوراً له بحكم عمله في قسم الترجمة أيام كان بمصر، فاتجه يولي اهتمامه بالقراءة في الأدب والتاريخ الأندلسي، فهو الآن في الأندلس، وفي تاريخها وآدابها ما يشفي الغليل، ويروي الظمأ إلى تلك الآداب، وذلك التاريخ، وكان يريد أن يعوض ما فاته فيما مضى من الأيام من ابتعاد عن تلك الثقافة، والاتجاه للثقافة الغربية مما أوجده عنده الآن رغبة ملحة في تحقيق شيء من التوازن بين الثقافتين عن طريق الاقتصار على الأدب والتاريخ الأندلسي

الذي كان عربي الوجه واليد واللسان.

لذا استبدل شوقي بلامرتين، ولافونتين وهوجو، أدباء الأندلس، ووجد في ابن زيدون ضالته، فهو شحرور تلك البيئة الراقصة، ومزهرها الذي عزف أروع ألحان الحب والوجد والهيام التي استوحاها من غرامه المشبوب بولادة بنت المستكفي حيث أخذ يناجيها بعد أن فرق الزمان بينهما قائلاً:

أضحى التنائي بديلاً عن تدانينا
ونأب عن طيب لقيانا تجافينا

لقد وجد شوقي في ابن زيدون شبيهاً له، حيث فارق هو أيضاً حبيبته، وإن اختلفت تلك الحبيبة. فهي عند ابن زيدون (ولادة)، وهي عند شوقي (مصر)، وكلاهما يعيش في المنفى عن هذه المحبوبة. ابن زيدون يعيشه عن طريق صدها عنه وهجرها إياه، وهما على ثرى واحد، وشوقي يعيش ذلك المنفى بعداً مكانياً حقيقياً حيث يفصله عن محبوبته (مصر) برٌ لا نهاية له، وبحر لا ساحل له فإذا به يقول مخاطباً ابن زيدون:

يا نائح الطلح أشباه عوادينا
نشجى لواديك أن نأسى لوادينا
رمى بنا البين أيكا غير سامرنا
أخا الغريب، وظلا غيرنا وادينا

ثم يخاطب بعد ذلك ذكرى عظماء الأندلس وفاءً واحتراماً لهم فيقول:

رسم وقفنا على رسم الوفاء له
نجيش بالدمع والإجلال يثنينا
لفتيةٍ لا تنال الأرض أدمعهم
ولا مفارقهم إلا مصلينا

ثم يناجي مصر معلناً حبه لها رغم أنها قد جفته وقلته حيث يقول:

لكن مصر وإن أغضت على مقة
عين من الخلد بالكافور تسقينا
على جوانبها رقت تمائمنا
وحول حافاتها قامت رواقينا

وبعد ذلك نرى الحب يتوحد في قلبه لمصر، وللأندلس بحيث لا يدري من التي تثير حزنه أكثر من الأخرى حيث يقول:

إذا حملنا لمصر أوله شجناً
لم ندر أي هوى الأمين شاجينا

وكم يتمنى شوقي أن يصنع المستحيل الذي يجعله يرى مصر فيقول:

لـو استطعنـا لخضنـا الجـو صـاعقـة
والبـر نـار وغـى، والبحـر غسلينـا

وهكذا يستمر شوقي في رحلته عبر هذه القصيدة يهدي عاطفته بعدالة وصدق إلى أمه (مصر)، وأمه الثانية (الأندلس).

لقد كان ذلك المنفى، رغم قساوته، نعمة من الله على شوقي، وعلى الأدب، وعلى الأندلس، حيث كان سبباً في تخليد تلك الآثار الرائعة شعراً، وعاد على إمارة الشعر بالخير الكثير والنفع العميم، فجعل شوقي شاعراً آخر غير الذي كنا نعرفه.

جعله شاعر الشعب بآلامه وآماله، بعدأن كان شاعر القصر في لهوه وترفه. وكما يقول الدكتور الحوفي: (كان نفيه ـ أي شوقي ـ نعمة على مصر ونعمة على الأدب)[1].

وعندما بدأت الأحوال والاتجاهات السياسية تستقر بنهاية الحرب العالمية الأولى التي شهدت هزيمة الألمان عام (1918م) رفعت الحكومة المصرية الحظر الذي كان مفروضاً على شوقي، فجاء مسرعاً إلى مصر راكباً أول باخرة مسافرة إلى (جنوى) فـ(البندقية) حتى وصل إلى مصر حيث استقبلته الجماهير استقبالاً رائعاً، ورأت أنه يستحق

(1) وطنية شوقي، ص85.

أن يكون بطلاً لأنه رفض الخضوع لرغبة المستعمر، وفضَّل المنفى على حياة الذل.

ولهذا ذهب الدكتور فوزي عطوي إلى الاعتقاد المحق (أن هذا الاحتفاء بالشاعر الكبير كان له عظيم الأثر في نفسه، الأمر الذي جعله يتجه اتجاهاً جديداً في شعر يناقض اتجاهه الأول، يوم كان سجين قصور أسرة محمد علي)[1].

إذاً عاد شوقي لا ليلتحق بالقصر كما كان في الزمن الماضي، فتلك مرحلة انتهت، بل عاد وقد آلى على نفسه أن يلتصق بالشعب، ويكون شاعره، ولسانه الذي يتحدث عن معاناته.

ولذا شارك بشعره في أول معركة وطنية تلتهب بعد عودته، إنها معركة (التموين) التي كانت الشغل الشاغل لأبناء الشعب، حيث كانت أشبه بالحرب الباردة تدور رحاها بين التجَّار والمستغلين من جهة، وأبناء الشعب الفقراء من جهة أخرى، فإذا بشعر شوقي يشارك في تلك المعركة فتدفق من لسانه كأنه شواظ من نار يلهب ظهور التجَّار الطامعين حيث يقول:

(1) أحمد شوقي شاعر الوطنية، ص24.

أنـادي الـرسـم لـو سلـك الجـوابـا
وأفـديـه بـدمعـي لـو أثـابـا
أمـن أكـل اليتيـم لـه عقـاب
ومـن أكـل الفقيـر فـلا عقـابـا!!

لقد كانت تلك القصيدة تمثّل تغيراً نفسياً واجتماعياً لدى شوقي، نبذ بسببه ارستقراطية القصر، ليقبل على بساطة الشعب، ويتطلع معه إلى الحرية التي لا يمكن أن تحصل وهناك جندي إنجليزي يلوث بقدمه النجسة أرض مصر.

كما كافأه الشعب عن تلك الوطنية المتأججة، فتم اختياره عضواً في مجلس الشيوخ سنة (1919م)، وكافأه الأدباء على حسن جهاده في سبيل الرقي بمكانة الأدب عامة، والشعر خاصة، إلى السها بأن عقدوا مؤتمراً في دار الأوبرا بمناسبة طبع ديوانه (الشوقيات)، وتوّج في ذلك المؤتمر أميراً للشعراء عن جدارة، على الأقل من وجهة نظر غالبية رموز الأدب العربي في ذلك العصر الذي تحدث بلسانهم شاعر النيل حافظ ابراهيم قائلاً:

أميـر القـوافـي قـد أتيـت مبـايعـاً
وهذي وفود الشرق قد بايعت معي

وإن كان بعض من شعراء وكتّاب ونقّاد ذلك العصر قد

هاجموا شوقي، وانتقدوا من اختاروه للشعراء أميراً، ورأوا أن للسياسة دوراً في ذلك.

* * *

ثقافتـه

ليس غريباً أن يكون للعصر الذي يعيش فيه الشاعر تأثير كبير على منهجه الشعري، كما كان لحياته التأثير ذاته، لأن الثقافة عبارة عن مكتسبات اكتسبها الشاعر من الدراسة أو الـقراءة الحرة الخاصة بالعصر الذي يعيش فيه ، وما سبقه من عصور، فهي جزء من البيئة، ولا بد لها من أن تترك آثارها على أدب الأديب.

فما مدى تأثير الثقافة على شعر شوقي، ومن أين اكتسبها؟.

سبـق وأن أوضحـت أن شـوقـي عـاش حيـاة القصـور الخديوية، ووصف نتيجة تأثره بها تلك الحياة المخملية اللاهية، ثم رحل إلى فرنسا، ورأى فيها وشاهد ما لم يره في وطنه، فكان لذلك تأثير مباشر على شعره، فأصبحت ثقافته متعددة المصادر واستقاها من ثلاثة أنهار ثقافية مختلفة كونت بحراً زاخراً بأنواع المعارف والأدب هو شوقي.

ولقد سبق الإيضاح بأن شوقي بدأ دراسته في سن صغيرة إذ لم يكن يتجاوز السنة الخامسة من عمره، عند الشيخ "صالح" ، ومن ثم في (مدرسـة المبتديان) التي كانت تعتمد الأسلوب الأزهري، إذ أنها تستمد منهاجها من التراث

الشرقي البحث، ولكن شوقي بعد تخرجه دخل المدرسة (التجهيزية الثانوية) ، ومن هنا استقى ثقافته من نبع ثان هو «التعليم المدني» الذي يعتمد في مناهجه على البرنامج الأوروبي، وتوج هذا الجانب برحلته لإكمال دراسته الجامعية في فرنسا، حيث شاهد هناك الطبيعة الحالمة المتجسدة في كل سهل وجبل في فرنسا مما ليس له نظير في بلاده.

كما رأى تطوراً ثقافياً واجتماعياً وفكرياً مختلفاً عما في بلاده، وبعد أن أنهى دراسته «الحقوقية» في ثلاث سنوات، أكمل سنته الرابعة في التنقل بين ربوع فرنسا وبريطانيا وسافر الى جنيف لحضور مؤتمر المستشرقين عام (1894م) ثم عرج على بلجيكا.

لقد اكتسب شوقي خبرة وثقافة جديدة، فتأثر بالأفكار السائدة في تلك المجتمعات الغربية من خلال تردده على المسارح ودور السينما، ومن ثم بدأ يطلع على الآداب الغربية، وخاصة أدب الأدباء الفرنسيين أمثال: دي موسيه ولامارتين وغيرهما وحاول التأثر بهم في منهجه الأدبي، فترجم البحيرة للامارتين. كما نظم على ألسنة الحيوان، أمثال لافونتين كما قلَّد هوجو في ديوانه أساطير القرون فنظم (همت الفلك، واحتواها الماء)، كما كان السباق في

ميدان الشعر «التمثيلي» لأنه أول من حاول ذلك ممثلاً في مسرحياته الشعرية.

وحين عاد إلى مصر، انكبَّ على قراءة التاريخ المصري القديم والتاريخ الاسلامي، وقلَّ أن تشرق شمس يوم أو تغرب دون أن يقرأ، ثم رحل منفياً إلى «الأندلس»، فوجد نفسه يعيش فراغاً كبيراً ومللاً مضنياً لن يقضي عليه إلا مصاحبة الكتاب، فأسلم نفسه إليه وعكف على قراءة دواوين الشعراء خاصة الأندلسيين.

تجاوب شوقي مع الشعراء الأندلسيين والتاريخ الأندلسي تجاوباً كبيراً، فتكونت عنده نتيجة لذلك ثقافة عالية لا تقلّ شأناً عن الثقافة التي اكتسبها عن طريق الدراسة، وربما اتَّحد هذا التيار الثقافي الجديد مع دراسته الأولى ليكونا تياراً واحداً هو «التعليم الديني الشرقي» ويتضح تأثيره في معارضات شوقي الشعرية لكبار الشعراء الأقدمين كالبحتري وأبي تمام وابن زيدون، وتأليف مسرحيات مستمدة من التاريخ العربي القديم كعنترة ومجنون ليلى.

وقد كان من الأولى أن يميل شوقي إلى المحافظين فيما لو كانت ثقافته شرقية بحتة، كما كان الأجدر به أن يجرفه التيار الجديد فيما لو كانت ثقافته غربية صرفاً، ولكن التقليد الثقافي الذي اختلط فيه الطابع الشرقي بالطابع الغربي جعل

شوقي ينحو منحى وسطاً بين المتعصبين والمغالين ويتزعم تياراً جديداً. لا إلى هؤلاء، ولا إلى هؤلاء. هو تيار المعتدلين الذين أخذوا من القديم صالحه، وأخذوا من الجديد نافعه، وتركوا ما عدا ذلك. فكانوا بذلك وسطاً بين المحافظين المتعصبين والمجددين المتنكرين، فلم يذوبوا في القديم ولم يغرقوا في الجديد.

وقد قال شوقي واصفاً تلك المرحلة من مراحل تطور الأدب العربي (كنت أعتقد أن الأوهام إذا تمكنت من أمة كانت لباغي إبادتها كالأفعوان لا يطاق لقاؤه، ويؤخذ من خلف بأطراف البنان، فجعلت أبعث بقصائد المديح من أوروبا مملوءة بالجديد من المعاني وحديث الأساليب بقدر الإمكان إلى أن رفعت للخديوي السابق قصيدتي التي أقول في مطلعها:

خدعوها بقولهم حسناء
والغواني يغرّهن الثناء

وكانت المدائح الخديوية تنشر يومئذٍ في الجريدة الرسمية، وكان يحررها يومئذٍ أستاذي الشيخ «عبد الكريم سلمان» فدفعت القصيدة إليه، وطلبت منه أن يسقط الغزل، وينشر المديح، فرد الشيخ لو أسقط المديح ونشر الغزل، ثم كانت النتيجة أن القصيدة برمَّتها لم تنشر، فلما بلغني الخبر لم يزدني علماً بأن احتراسي من المفاجأة بالشعر

الجديد دفعة واحدة إنما كان في محله وأن الزلل معي إذا استعجلت)[1].

من هنا تحددت طريقة شوقي التي اختطها لنفسه منطلقاً في ذلك من ثقافته المتأثرة بأحداث عصره السياسية والاجتماعية والفكرية، فلا غرابة إذاً، إذا سطعت في شعره مظاهر شرقية كالمعارضات الشعرية، وجزالة الأسلوب، والإلمام بقواعد اللغة العربية ونظم المسرحيات التي تحكي التاريخ الإسلامي كعلي بك، ومحمد أبو الذهب، ومجنون ليلى، وعنترة، وملحمة دول العرب وعظماء الإسلام، واشتهرت قصائده التي يتجلى فيها الخيال العربي، وما اكتسبه الشاعر من قراءته في الأدب الفرنسي.

وختاماً فإن العوامل الثقافية التي كونت شاعرية شوقي كانت ثلاثة هي:

1 ـ الدراسة الأولى عند الشيخ صالح، وفي المبتديان رغم قصرها.

2 ـ الدراسة الثانوية في ثانوية التجهيز، ثم الدراسة الجامعية في فرنسا، ورحلاته خلالها.

3 ـ النفي إلى الأندلس وانكبابه على قراءة الآداب الشرقية وتاريخها.

---

(1) تاريخ الأدب العربي، ص982.

إلاَّ أنه يمكن الجمع بين العاملين الأول والثالث ليكونا عاملاً واحداً رغم تباعدهما زمنياً، هو العامل الشرقي، لتنحصر العوامل المؤثرة في شعره في عاملين:

1 – الشرقي: في دراسته الأولى، وقراءته الحرة ونفيه للأندلس.

2 – الغربي: في دراسته الثانوية والجامعية، ورحلاته في البلاد الأوروبية فيما عدا الأندلس.

* * *

شاعريته

«الشاعرية» صفة «فطرية» في الشاعر منذ ولادته توجد لديه استعداداً لأن ينظم الشعر، فالشعر موهبه، وليس اكتساباً إلاَّ أن للاكتساب دخلا في تكوين الشاعر، وذلك حين يعكف على النهل من منابع الثقافات المختلفة من آداب أو أشعار وتاريخ، وحياة اجتماعية وسياسية ليزيد التجربة، وينمي الموهبة.

ومن هنا تفاوت الشعراء قوة وضعفاً وكثرة وقلة، لذا فإن الشاعر الذي لا ينمي الموهبة، ويسقيها من ينابيع الثقافة، يبقى شاعراً ضعيفاً، ومن ثم مغموراً. في حين يتألق الذي يحرص على إنماء موهبته شاعراً لا يشق له غبار، كما هي حال المتنبي وأبي تمام والبحتري وآخرين.

وقد توفرت لشوقي جميع العوامل التي كوَّنت منه شاعراً مجيداً تصدر عرش إمارة الشعر في العصر الحديث، فمن ناحية الموهبة، وهبه الله شاعرية تأصَّلت فيه يوم ولد، فقال الشعر وهو لا يزال صغيراً، وبالأحرى في سنته الخامسة عشرة حينما أنشد:

أفريقيا قسم الوجود
في شكله شبه العقود

وقد تعهد هذه الموهبة الفطرية بالثقافة، حيث ارتشف العلم من أكثر من إناء، فكان ذلك سبباً في تنوع شاعريته، بدراسته في المبتديان، وفي الثانوية التجهيزية، ثم سفره إلى فرنسا، ودراسة الحقوق، وتنقله في ربوعها واطّلاعه على آداب عظمائها، ثم نفيه إلى الأندلس.

كما عكف شوقي على قراءة الأدب والتاريخ الأندلسي، وخاصة دواوين الشعراء، يضاف إلى ذلك عكوفه على القراءة الجادة في أوقات فراغه في الأدب والدين والتاريخ الاسلامي... الخ.

ومن هنا اكتملت شاعرية شوقي وجاءت قوية صلبة، فأصبح بذلك بدراً يتلألأ في سماء الشعر فيغمرها سناؤه وضياؤه، لا تزيده الأيام إلاَّ سطوعاً وشعاعاً، ولا يزيده كر الجديدين إلاَّ رفعة ومكانة، (ومن هنا كان شوقي تعويضاً عادلاً لقرون طويلة من الإجداب في عالم الشعر)[1] كما يقول الدكتور الحوفي.

لقد تطرق شوقي إلى جميع أغراض الشعر تقريباً، واستوفى القول فيها وأجاد، فلم يصبه ضعف إلاَّ نادراً، وذلك لأنه يملك نفساً طويلاً، له القدرة على النظم، بلا

(1) أحمد شوقي شاعر الوطنية، ص6.

سأم ولا ملل، وهذا سرّ إطالته في قصائده حتى أصبحت تعدّ ضرباً من الملاحم.

(لقد نظم شوقي في الأغراض السياسية والاجتماعية والتاريخية، والفلسفية والأدبية والقصصية، والاقتصادية والطبيعية وفي باب التربية والتعليم، والمواعظ والحكم والأخلاق، وصوّر الآثار الخالدة ومشاهد الطبيعة)[1]، ولا شك أن البراعة في هذه الفنون جميعها تدل على شاعرية فذة، وإلهام شعري لم يتأت لأحد من قبل شوقي بعد وفاة المتنبي، وقد لا يتأتى لأحد بعده، ومن هنا (كان ترجمان هذا الجيل يوقد وهو مزهر، تبعث منه الطبيعة رثاءها، وتخرج منه الإنسانية أناتها)[2]، كما قال جميل مردم، وإن كان في هذا القول شيء من المبالغة.

(فلقد تأدب شوقي بآداب العرب فأخذ عن كل شاعر أفضل ما عنده) كما يرى د. حنا الفاخوري[3]، كذلك كان يحرص على «الجو» الملائم له، لكي يقول فيجيد، ويحلّق في سماء الشعر عالياً، ولهذا كان يختار الأوقات التي يكون مرتاحاً فيها نفسياً، وغالب هذه الأوقات، يتأتى له حينما يجلس مجالس الأنس مع أصدقائه.

(1) مجلة المجمع اللغوي الدمشقي (مقال جميل مردم سنة 1926م ص 349).
(2) مجلة الهلال سنة 32 ج 1، ص 1068.
(3) تاريخ الأدب العربي، ص 975.

يقول أحمد رامي: (كنا نجلس في «لباني» ثم ينسل شوقي في هدوء فيركب عربة تدور به حول الجزيرة، ثم يعود فيملي عليَّ عدة أبيات، ثم دورة أخرى حول الجزيرة، ثم عدة أبيات أخرى، ولا تنتهي الليلة إلاَّ بقصيدة قد تتجاوز مائة بيت ولهذا نجد الشعر يسيل على لسانه سيالاً، ويتدفق تدفق السيل الجارف، وتتداعى الألفاظ والمعاني القوية في فكره فيعبر عنها أوضح تعبير) [1]

كما يقول صالح جودت: (وهكذا كان الشعر مطواعاً لا يكلفه أقل عناء إلى حد أن قصيدته في النيل وهي من خير قصائد حياته، بل لعلَّها في طليعة الشعر العربي كله نظمها في ليلة واحدة) [2].

هذا الإبداع يؤكد الإشارة إلى شيء مهم، هو «سرعة البديهة»، وحدة الذكاء، فالمعروف عن كثير من الشعراء أنهم ينقحون أشعارهم، ولا يظهرونها للناس إلاَّ بعد عرضها على النقَّاد كي يميزوا صحيحها من سقيمها، ولم يكن شوقي كذلك، وإنما كان يلقي الشعر في غالب الأحيان بسرعة قد لا تتوفر لأحد سواه، لما تميز به من توقد الذهن، وسرعة البديهة، حتى وصل به الأمر في ذلك إلى (أنه كانت الحادثة من الحوادث تقع صباحاً، فلا يحل المساء حتى

(1-2) ملوك وصعاليك، ص 450 (بتصرف).

تذاع بين الجمهور بقصيدة شوقي). كما يقول د. شوقي ضيف[1]، وهذا لا يتأتى إلا لشاعر تأصَّلت لديه موهبة الشعر، وجرت مجرى الدم في عروقه.

ومن الأدلة على شدة بديهته ما يرويه أيضاً الدكتور شوقي ضيف في كتابه «شاعر العصر الحديث» نقلاً عن محمد كرد علي (أنه صنع قصيدة يلقيها ليلة تكريمه في المجمع العربي بدمشق ولم تعجبه، فعمد إلى نظم أخرى أتى فيها بالمعجب المحير، ولم تكن هذه الأخرى إلا نونيته)[2].

قم ناد جلق وانشد رسم من بانوا
مشت على الرسم أحداث وأزمان

ومما يدل على عظم شاعرية شوقي، أنه استطاع أن يتفوق على الماضين في وصف الأطلال والرسوم وآثار الممالك الزائلة.

ويتمثل ذلك جلياً في وصفه لنكبة اليابان، والأندلس ودمشق وبيروت وسواها، حيث نقل إلينا صوراً حسية رائعة تحمل القارىء على التوهم بأنه يرى هذه الآثار ماثلة بين عينيه، رغم أنه لا يراها إلاَّ من خلال ألفاظ شوقي ومعانيه، ولكن التصوير الرائع يحوِّل الخفيات إلى حسيات مشاهدة،

(1) شوقي شاعر العصر الحديث، ص58.
(2) شوقي شاعر العصر الحديث ص59.

وتأبى هذه العبقرية أن تحلّق في سماء الخيال بجناح طليق فتنشر من الأغراض الشعرية ما لم يكن موجوداً في الأدب العربي إطلاقاً، وذلك حينما أدخل شوقي الشعر التمثيلي في الأدب العربي، فألّف مسرحيات، علي بك الكبير، وعنترة، وقمبيز، ومصرع كيلوباترا، ومجنون ليلى ، فكان بذلك رائداً ، وفي ذلك الميدان قائداً .

كما أن هناك شيئاً آخر، يعظم من تلك العبقرية في عيوننا، هو أن شوقي جارى الحياة الحديثة، فكما وصف الأقدمون السيف والرمح والفرس، نراه يصف الطائرة، والقاطرة، والغواصة، وغيرها من المخترعات الحديثة، وصف ملمٍ بها وبدقائق صنعها، وكأن يده هي التي أبدعتها، وذلك لأنّ ملكة الشعر طبيعة له والإلهام والخيال مواتٍ له، وهو ما لم يملكه شاعر قبله إلاّ قليلاً .

كما تتجلى براعة شوقي في محاكاة القدماء، فيرجع إلى الوراء قروناً، ليملك قدرة امرىء القيس على الوصف، وبراعة البحتري في الحزن، وجزالة الفرزدق في الفخر، وسواهم من الشعراء القدماء، ولو حذف اسم شوقي من القصيدة، وقرئت على من يتذوقون الشعر، لأيقنوا أن القائل شاعر موغل في القدم، وذلك لأن شوقي يجيد صياغة الشعر في أساليب مختلفة، حيث يرى القارىء نفسه أمام شاعر يكاد يذوب في الحضارة الجديدة، كما يذوب

السكر في الماء، ويغرق في خضمها غرق من لا يعرف السباحة في قاع البحر، ويحس أنه يقطع كل صلة تربطه بالماضي الغابر، كل ذلك جاء به شوقي لأنه عبقري له من الخصائص والسمات ما جعله الشاعر المتألق.

إن ملاءمته بين هذين التيارين جعلته يوجد تياراً ثالثاً، ويقود السفينة فيه، فلا جنوح ولا غرق، فاستحق بذلك إعجاب الناس جميعهم حتى المتحاملين عليه لم يملكوا في النهاية إلاَّ الإعجاب بعبقريته وإجلال مكانته، في حين تضاءل المغالون في تعصبهم، والمفرطون في حداثتهم للتجديد نتيجة تمسكهم بالقديم دون سواه أو الجديد عما عداه.

كذلك ارتقى شوقي بالأغنية العربية إلى مستوى مرموق بعد أن كانت تنتابها قبل مجيئه عوامل التفكك، وضعف النسج، والذوبان في العامية إلى درجة الإسفاف، فنظم قصائد رائعة اتَّصفت بسلامة العبارة وملاءمتها للنغم الموسيقي مثل: (جارة الوادي)، و(مضناك جفاه مرقده).

كما نظم في العامية، ولكنها عامية تقف وسطاً بين العربية الفصحى والعامية المتسقة، وكان نتيجة ذلك أن أقبل المغنون والموسيقيون كعبده الحمولي، ومحمد عبد الوهاب، ومنيرة المهدية، وأم كلثوم، على التغني بشعره الرقيق، وترطيب آذان المستعمين بترانيمه العذبة،

وموسيقاه الأنيقة، فأقبل الناس عليها لأنها سمت بذوقهم عن مواطن الضعف والانحطاط.

يقول الدكتور محمد كامل الفقي: رأى الشعراء المعتدلون أن الأغاني صوت يعبّر عما في مشاعر الناس، ولحن تفيض به خواطرهم بالشكوى حيناً، وبالأمل حيناً، وبالوجد حيناً، فاحتفلوا بهذا اللون من الشعر، وسموا بتعبير الأغاني، وارتقوا بمعناها ارتقاءً ملحوظاً، وكان لهذا التهذيب أثر في إغراء الناس، وترنمهم بجمالها، وبلغ شوقي وإسماعيل صبري في ذلك مبلغاً عظيماً فأحلاّ فنهما الرفيع محل الأغاني المبتذلة التي خلت من حسن الصوغ وجمال العبارة وسمعنا شوقي يقول:

بي مثل ما بك يا قمرية الوادي
ناديت ليلى فنوحي في الدجى نادي

ويقول في موضع آخر: (كذلك رأى هؤلاء انتشار الأغاني العامية على ألسنة لناس، بما فيها من ابتذال، فرأوا أن محاولة السمو بالأغاني لا تقتصر على النظم بالعربية، وإنما الأليق أن تكون لهم أغانٍ عامية تعمل هي الأخرى على السمو بالذوق)[1].

هذا هو شوقي «في شاعريته» شاعر تفوَّق على الشعراء،

(1) مذكرة كامل الفقي (كية اللغة العربية) عام 1391هـ.

وغرَّد في دوحة الشعر بأسمى الألحان حتى جذب أنظار الناس إليه فأرهفوا آذانهم.

* * *

وطنيته

هل كان شوقي شاعراً وطنياً ؟

أعني بالوطنية: هل شارك شوقي الشعب في حالات الصعود والانحدار؟ هل تغنّى بآمال الشعب وآلامه، وشعر بما شعر من ضيق وتبرم من نير الاستعمار وتعسّفه؟ وهل شارك الشعب أحزانه حينما مات زعماؤه الوطنيون؟ وأفراحه لحظة الانتصار؟

وإن كان شاعراً وطنياً . . فهل كانت هذه الوطنية متأصلة في نفس شوقي، متعمقة في فؤاده، منذ أن تفوَّه بالشعر وابتدع القوافي؟ أم أنها وطنية اتَّصف بها شوقي بعد أن قطع في مسيرة العمر شوطاً لا بأس به؟

أسئلة كثيرة تطرح نفسها، ولا شك أن كثرة التساؤل تعطي حكماً واضحاً واتجاهاً بيناً هو الشك في وطنيته .

لذا لا بد من تحليل الآراء للوصول إلى نتيجة «صحيحة» خالية من التعصب ضد شوقي أوله .

لقد عاش شوقي في قصور الخديوي توفيق وأرسله إلى فرنسا لإكمال تعليمه الجامعي، وحينما عاد، عاد رجلاً مكتمل الثقافة والرجولة الشاعرية، فكان من الطبيعي أن

يخلص لرجل أولاه نعمته، وأسبغ عليه الأيادي البيضاء، فأصبح اللسان الناطق بمآثر الخديوي. يسمع بأذنية، ويتكلم بلسانه ، ويرى بعينيه، وبعبارة أوضح لقد قيّده الخديوي ، وعقل لسانه فعانى شوقي من ذلك ما عانى .

وفي تلك الأحوال كان الصراع السياسي في مصر على أشده بين الإنكليز والخديوي توفيق من جهة، والشعب ممثلا في زعمائه الوطنيين من جهة أخرى، وكل من الفريقين يدَّعي أنه الوطني المخلص .

فإى أين اتجه شوقي بادىء الأمر؟

لا شك أنه اتجه إلى سيده، ولنقل وجهة سيده، وكان الشعب يتهم ذلك السيد في وطنيته، وطبيعياً أن تسري العدوى إلى شوقي فيشك الناس فيه لأنه شاعر الخديوي توفيق، والناطق الرسمي باسمه، فأشارت بعض الأصابع إليه متهمة إياه في وطنيته وإخلاصه، ولكنها لم تشر كلها إليه.

إن النار تستخلص جيد الذهب من رديئه وغثه من سمينه، وكذلك الأحداث الوطنية التي صهرت الشعراء في نارها، ومزقت قناع الخداع عن وجوه المخادعين منهم، ومايزت الوطني المخلص عن غريمه فعرف الناس " حافظ إبراهيم" شاعراً وطنياً مخلصاً، فكيف عرف الناس شوقي؟

كان شوقي ضعيف الوطنية في تلك الفترة، ولكنه لم يكن معدوماً من رائحتها، كما ذهب إلى ذلك كثير من الكتّاب،

ويرجع ضعفه ذلك إلى الكبت الذي يلاقيه من سيده البعيد كل البعدعن الوطنيين، لهذا سكت شوقي عن كثير من الأحداث المؤلمة، التي وجد فيها الوطنيون عطاءً ثرّاً للتعبير عن نفسياتهم المضطربة القلقة، ووطنيتهم المخلصة. . فلم يعبّر عنها شوقي إلاّ بعد حين.

في سنة 1906م ذهب الجنود الإنجليز إلى قرية دانشواي لصيد الحمام، وحاول أهالي القرية منعهم وصدّهم عن قصدهم، فظنوا أن الأهالي يريدون بهم شراً، فهرب أحدهم فمات في الصحراء بسبب ضربة شمس، فاستبد الغضب باللورد (كرومر)، وكون المحكمة التي حاكمت الأهالي محاكمة سريعة ترافع ضدهم فيها: المحامي ابراهيم الهلباوي، ورأسها أحمد فتحي زغلول، شقيق الزعيم الوطني سعد زغلول، فحكمت بإعدام أربعة منهم معتمدة في ذلك على حجج أوهى من خيط العنكبوت، كما حكمت بتشريد البعض وسجنهم، فثار الشعب هائجاً كبحر زاخر عصفت به الأعاصير، فاضطربت أمواجه، وتلاطمت، واستنكرت مختلف طبقاته تلك الأحكام الجائرة، واتّهم المصريون الذين اشتركوا في المحاكمة بالخيانة والعمالة، كما عبَّرت تلك الطبقات عن أحزانها، ومشاركتها الوجدانية والعاطفية لأسر الضحايا الذين قدموا أنفسهم فداءً للشعب وشقوا بذلك له طريق النصر.

لكن شوقي رغم مصريته سكت، وأطبق شفتيه، وكأنه صخرة جامدة، فلم ينبس ببنت شفه أو يتفوه بكلمة عزاء وهو المصري مولداً ونشأة وإقامة، حتى إذا مرَّ عام قال:

يـــا دانشـــواي علـــى ربـــاك ســـلام
ذهبـــت بـــأنـــس ربـــوعـــك الأيـــام

فلماذا لم يشارك شوقي الشعب مصيبته، إبان وقوعها، وأيها أدلّ على وطنيته المشاركة في حينها أم بعد حين؟

لقد اتهم شوقي لعدم مشاركته، وتعبيره عن حزنه إزاء الحادثة في حينها بأنه عديم الوطنية والشعور، وإلا لما كان كذلك، ولأصابه ما انتاب الشعب، فثار وماج كبحر هائج، فشاطر الناس أحزانهم وأتراحهم.

والحقيقة أن شوقي لم يكن فاقداً للحس الوطني، ولكنه مجبر بحكم سياسة القصر على السكوت والرضوخ لأوامر سيده.

وما يؤكد هذا الانتماء الوطني المستتر هو مشاركته بعد عام من مرور الحادثة، لأن هذا يدل على أن آثارها ظلَّت حيَّة في صدره ويخفق بها فؤاده، فلم تستطع الأيام، ومجالس الأنس أن تمحوها أو تزيل آثارها، حتى إذا وجد فرصة سانحة شارك، وها هو قد فعل، وهذا يدل على وجود الوطنية لدى شوقي، ولكنها ضعيفة إزاء السياسة الغاشمة.

إذ لو كانت قوية لثارت على سياسة القصر، ونزلت إلى الشعب لتجد فيه صديقاً مخلصاً ومدافعاً لا يخاف.

ومما يؤكد هذا هو تأثر شوقي من اللورد كرومر «بطل حادثة دانشواي» حينما ألقى خطاباً في إحدى المناسبات، وتناول أسرة الخديوي إسماعيل بالخدش والتجريح.. فإذا بشوقي يتفجر غضباً، ويقول منتقماً لسيده يوم وداع اللوردكرومر:

لمـا رحلـت مـن البـلاد تشهـدت
فكـأنـك الـداء العيـاء رحيـلا
أوسعتنـا يـوم الـوداع إهـانـة
أدب لعمـرك لا يصيـب مثيـلا
هـلا بـدا لـك أن تجـامـل بعـدمـا
صـاغ الـرئيـس لـك الثنـا إكليـلا

فقد تهجَّم شوقي فيها على كرومر، انتقاماً لسيده اسماعيل، وأسرته، لأن الواجب يفرض عليه أن يعادي أعداءه ويوالي أولياءه.. كما عبّر عن وطنيته في تلك القصيدة، حيث صوَّر فرحته برحيل الرأس المدبر للاستعمار. فهو هنا يحلّق بجناح طليق، وحرية تامة، لأنه وجد فرصة ينفّس فيها عن حقده على رمز الاستعمار، وتعبّر عن إخلاصه ووطنيته وقربه من الشعب.

لقد حطَّم شوقي أحياناً القيود، وتعدَّى على سياسة القصر وخرج عن دائرة الضعف والوهن التي أملتها عليه سياسة القصر، فأعلن في صراحة تامة عن موقفه الوطني.

يؤكد ذلك موقفه من رياض باشا حينما قام خطيباً في حفل وضع الحجر الأساسي لمدرسة محمد علي الصناعية في 23 ديسمبر سنة 1904م فقال: (جناب المحترم اللورد كرومر، اعتذر اليوم عن الحضور في هذا الحفل لتغيبه عن مصر، وكل منَّا يعلم ماله من المقام الأرفع والنفوذ الأشمل)[1]، فقد ثار شوقي على رياض، واتهمه بالتزلّف إلى هذا الإنجليزي الوقح حينما خلع عليه من الثناء حللاً، ولم يتورع، فوصفه بالوطنية رغم أنه إنجليزي يريد تحطيم الوطنيين، فقال ساخراً:

غمرت القوم إطراءً ومدحاً

وهم غمروك بالنعم الجسام

لقد كانت وطنية شوقي تتأرجح بين القوة والضعف في هذه الفترة، إلاَّ أنها تميل إلى الضعف أحياناً، لأنه ليس على هواه وإرداته، وإنما يستلم الأمر والنهي من سياسة أعلى منه.

وحينما مات مصطفى كامل مؤسس الحزب الوطني

(1) وطنية شوقي، ص128.

في ريعان الشباب، عام (1908م) عن (36) عاماً، وكان رحمه الله وطنياً صادق الوطنية، جابه الاستعمار وناوأه. نزل خبر موته على الشعب نزول الصاعقة، فلا تقع العين إلاَّ على نائح حزين، وقف شوقي موقفاً سلبياً من وفاته رغم الصداقة التي تربط بينهما إذ كان مصطفى كامل صاحب الفضل في رضا الخديوي عباس عليه، وإقباله عليه حتى اصطفاه وقرَّبه، (وحينما اختار مصطفى كامل شعاراً له عبارة لا حياة مع اليأس أشار عليه شوقي أن يضيف إليه: ولا يأس مع الحياة)[1].

هذا يدل على مدى عمق الصداقة بينهما، والتي لم تتأثر يوماً من الأيام، بل استمرت قوية راسخة، ومع ذلك سكت شوقي سكوت العييّ عن التعبير عن مشاعره الوطنية الحزينة، فلم تكن المصيبة وحدها قد ألجمت فاه، وإنما سيده الذي ألجمه، ومنعه من الكلام، فمصطفى كامل زعيم وطني يعتبر في طليعة أعداء الخديوي، ولهذا لن يرضى عن شوقي إذا مجَّده أو سطَّر فيه كلمة رثاء، ولو كشف عن فؤاد شوقي لوجد يعتصر ألماً، ويقطر دماً حزناً على صديقه، ورفيق عمره، ولكنها السياسة، أبت عليه أن يتكلم، ومع ذلك لم تستطع أن تقضي على آثار المصيبة الفادحة، وأن تزيلها من قلبه، بل بقيت آثارها حية لا تزيدها الأيام إلاَّ

(1) أبي شوقي، ص133.

اشتعالاً وتوقداً، حتى إذا سنحت فرصة استجاب لنداء القلب، فخلص نفسه من قيوده التي لم تستطع منعه، لأنها تظن أنه لن يستطيع أن يتكلم، فما مرَّ من الوقت جديرٌ بأن ينسيه، ويسليه، ولكنه لم ينسَ أو يتناسَ، بل تفجّر ينبوع حزنه ومعين أساه. فقال :

المشـــرقـــان عليـــك ينتحبـــان
فـي مـأتـم قـاصيهمـا والـدانـي
يـا خـادم الإسـلام أجـر مجـاهـد
فـي الله مـن خلـدٍ، ومـن رضـوان
لما نعيت إلى الحجاز مشى الأسى
فـي الـزائـريـن، وَرُوِّعَ الحـرمـان

بل واستمر يتذكره ما تعاقب ليل ونهار، فرثاه مرةً أخرى تعويضاً عن سكوته عنه عاماً كاملاً بقصيدته :

لـم يمـت مـن لـه أثـر
وحيـاط مـن السيـر

كما نظم قصائد حزينة في رثاء كل من عبد العزيز جاويش، والمنفلوطي، وعبده الحامولي، وقاسم أمين، والمويلحي، واسماعيل صبري، وسلامة حجازي، والشريف حسين، وغيرهم لا يتسع المجال لذكرهم .

ويؤكد ذلك ايضاً موقفه من أحمد فتحي زغلول شقيق

سعد الزعيم الوطني، وكان فتحي ممن حاكموا الوطنيين في دانشواي نزولاً على رغبة الإنجليز، وفي موقفه هذا أكد وطنيته في أسمى مظاهرها، (حين رقي فتحي زغلول إلى منصب الحقانية، وأقام له الوصوليون حفلة تكريم في فندق شبرد، ودعوا شوقي إلى إلقاء قصيدة في الحفلة، فظلَّ يسوّفهم إلى أن استيأسوا، فإذا بهم يفاجأون بظرف يصل إلى شبرد قبل بدء الحفلة بلحظات وبداخله هذه الأبيات:

إذا ما جمعتم أمركم وهممتموا
بتقديم شيء للوكيل ثمين
خذوا حبل مشنوق بغير جريرة
وسروال مجلود، وقيد سجين
ولا تعرضوا شِعري عليه فحسبه
من الشعر حكم خطه بيمين
ولا تقرؤوه في شبرد بل اقرؤوا
على ملأ في دنشواي حزين

وطويت الأبيات وظلَّت مطوية إلى أن مات شوقي)[1].

فأي وطنية اسمى من تلك، وأي إخلاص أعظم من إخلاص رجل يأبى أن يسطر المديح في رجل خدم الاستعمار، وحكم بشنق الأبرياء، بل ويعرض نفسه لخطر السجن بسبب هذا الموقف.

---

(1) ملوك وصعاليك، ص56ـ57.

أمـــا موقف شوقي من أحمـــد عرابي فمعروف لأنه قـــد واجهه عند عودته من المنفى عام (1901م) بقصيدته :

صغـــار فـــي الـــذهـــاب وفـــي الإيـــاب
أهـــذا كـــل دأبـــك يـــا عـــرابـــي

وأحمد عرابي هو الوطني الذي أعلن الثورة على الإنجليز عام (1881م)، فأمر الخديوي توفيق شاعره أن ينظم في عرابي قصيدة يشحنها بألفاظ الإهانة لعلها تقلل من قيمته عند الشعب، ويصغر في عيونهم، فقال شوقي تلك القصيدة مدفوعاً بالسياسة لا بالعاطفة، والدليل على ذلك أنه أمر بحذفها من ديوانه فيما بعد.

هـــذه مواقف تتحدث عن "وطنية شوقي قبل المنفى" تجمع كلها على وجود الوطنية المشوبة بالضعف، ولكن لم تصل إلى مرحلة الانعدام.

يقول الدكتور الحوفي: (إن شوقي كان قبل نفيه مقيداً بالقصر وبسياسته المرسومة، فكان يحلّق بجناح غير طليق لأن للقصر قيوده الملزمة وأحكامه المطاعة، ومن هنا كان شعـره الـوطنـي قبـل النفـي أقـل مـن شعـره بعـد النفـي وأضعف)[1].

وهذه هي المرحلة التي تطرَّق الشك فيها إلى وطنيته

(1) وطنية شوقي، ص84.

خلالها، واتهمه البعض فيها بالمروق والتملّص منها، ولا شك أن طه حسين والعقاد يمثلان في ذلك، رأى المتهمين، حيث ذهب الدكتور طه حسين إلى اتهام شوقي في شعره جملة فقال: (إنني لا أعرف لأمير الشعراء عقيدة صريحة في الشعر وما أرى أنه قد حاول أن يكون لنفسه هذه العقيدة)[1].

(أما العقّاد فقد ذهب يشرح أشعار شوقي ويجرحها، ويرى في شوقي أنه يحس الوطنية المصرية كما يحسها التركي المتمصر من طبقة الحاكمين أو المقربين إلى الحكومة. فكان ينظم في الخلافة وحوادث الدولة العثمانية، ويبرىء الحكم التركي من عيوبه التي عرفت في مصر)[2]، وهذا بدوره تعصّب ضد شوقي، ينحو منحى رأي الدكتور طه حسين في مخالفته للنقد السليم الذي يقوم على التذوّق، مع طرح التعصّب للأديب أو عليه جانباً.

ولئن هفا شوقي أحياناً وضعفت وطنيته فليس في ذلك ذنب يؤخذ به مدى عمره، فلكل جواد كبوة، ولكل صارم نبوة، وهذا حافظ ابراهيم قد ذلّ أكثر من شوقي وأشنع حين دعا السلطان حسين كامل (إلى موالاة الانجليز لأنهم كرام ميامين النقية ذوو ملك مجيد وخلق حميد، وليس مثلهم في

(1) شوقي وحافظ، ص13.

(2) شعراء مصر وبيئاتهم في العصر الماضي، ص184.

صدق الود ومعونة مصر)[1]، كما يقول الدكتور الحوفي، حيث يقول حافظ مخاطباً السلطان حسين كامل:

فعـــش للنبـــل سلطـــانـــاً أبيـــاً
لـــه فـــي ملكـــه حـــل وعقـــد
ووال القـــــوم إنهمـــــوا كـــــرام
ميـــاميـــن النقيبـــة أيـــن حلـــوا

ومع هذا فلم تؤثر هذه الزلة على حافظ، وإنما بقي «شاعر الشعب» لأنه إنسان، والإنسان بحكم ضعفه، تنتابه عوامل القوة حيناً، والضعف والجنوح حيناً.

هذه مرحلة من مراحل وطنية شوقي.

والمرحلة الأخرى تبدأ حين نفي إلى الأندلس عام (1914م)، فقد صهره النفي كما وجد نفسه حراً طليقاً، فليس هناك قصر أو رسميات تحدّ من حريته أو تقيّدها، فبرز انتماؤه الحقيقي قوياً متدفقاً، فأخذ يناجي مصر على البعد، ويصوّر حنينه إليها وشوقه، فكان يتمنى لو كحل عينيه بترابها، مؤكداً في تلك الأشعار حبّه لها وإخلاصه، رغم نفيها إياه:

لكـن مصـر، وإن أغضـت علـى مقـة
عيـن مـن الخلـد بـالكـافـور تسقينـا

(1) وطنية شوقي، ص161.

وقوله:

وطنـي لـو شغلـت بـالخلـد عنـه
نـازعتنـي إليـه بـالخلـد نفسـي

حتى إذا عاد إلى مصر سنة(1919م) عُدَّ وطنياً خالصاً يعبر عن وطنيته كيفما شاء، في الشارع والمحافل وغيرها.

ويشاء الله أن يعود شوقي، ومسألة التموين تعصف بالوطن، فهي شغلها الشاغل، فما كان منه إلاَّ أن شارك شعبه في الاكتواء بنارها في أول قصيدة قالها معبراً عن فرحته بعودته حيث يقول:

حنـانـك، واهـد للحسنـى تجـاراً
بهـا ملكـوا المـرافـق والـرقـابـا
ورقـق للفقيـر بهـا قلـوبـاً
محجـرة، وأكبـاداً صـلابـا

وفيها عاب على التجّار زيادة الأسعار، لما في ذلك من إنهاك لجيب الفقير، الذي يكاد أن يستف ترب الأرض جوعاً، كما تمنى لو شارك في ثورة الشعب في ذلك العام، ولكنه لم يستطع لأنه في المنفى الذي حرمه هذه الرغبة.

واستمر شوقي على تلك الوطنية، فلم تفته حادثة سياسية أو اجتماعية دون أن يشارك فيها بشعره. يقول الدكتور الحوفي: (فلما نفي «أي شوقي» أثرت وطنيته لأنه

انطلق من إسار القصر، ومراسيمه، وذاق مرارة العدوان البريطاني على حريته وحرية قومه، فعبَّر عن تلك الوطنية في مواقف كثيرة، كذكرى وفاة مصطفى كامل، ومشروع (28) فبراير، وسواها من الأحداث الوطنية الكبرى، ولهذا جاء شعره بعد النفي يلتهب وطنية ويمتد، فيشمل مصر والعرب والإسلام)[1].

ولم تكن هذه هي مواضع وطنيته فقط، وإنما كانت هذه مرحلة تسمى الوطنية المصرية «قبل النفي وبعده»، إذ كان شوقي متعدد الوطنيات التي تتجاوز الحدود الإقليمية والسياسية والطبيعية، (فشوقي شاعر مسلم مخلص لدينه في غير ما تعصب وجمود، وشوقي شاعر عربي مؤمن بالقومية العربية كحقيقة تاريخية موضوعية، وشوقي شاعر مصري يقدّس وطنه ويعتزّ بأمجاده الغابرة ويهتم بمشاكله المعاصرة)[2] كما يقول د. نجيب الكيلاني.

هناك وطنية مصرية خلَّدها في تغنيه بأمجاد مصر القديمة.. حيث وصف النيل والأهرام، وسواها من الآثار التي تدل على عراقة الأمة المصرية، وقدمها، وقِدم حضارتها، كما في قصيدته أيها النيل، حيث يخاطبه قائلاً:

(1) وطنية شوقي، ص85.

(2) شوقي في ركب الخالدين، ص114.

مـن أي عصـر فـي الـورى تتـدفـق
وبـأي كـف فـي المـدائـن تغـدق

وقصيدته على سفح الأهرام، حيث يقول:

قـم نـاج أهـرام الجـلال ، ونـاد
هـل مـن بنـاتـك مجلـس أو نـادي

كما خلَّدها في دعوته الأمة إلى الاتحاد في وجوه الأعداء الذين يريدون تفريقها بعد ألفة، وتمزيقها بعد وحدة في قصيدته: شهيد الحق، حيث يقول:

إلام الخلـف بينكـم إلا مـا
وهـذي الضجـة الكبـرى عـلامـا
وفيـم يكيـد بعضكـمُ لبعـض
وتبـدون العـداوة والخصـامـا

وقوله في دعوته إلى رأب الصدع الذي حدث بعد مقتل «بطرس غالي» بيد ابراهيم الورداني حيث أوشكت الفتنة أن تشتعل وتضطرم، وذلك في قصيدته مصرع بطرس غالي:

بنـو القبـط إخـوان الـدهـور رويـدكـم
هبـوه يسـوعـاً فـي البـريـة ثـانيـا

كما تتمثل تلك الوطنية في نظمه لمسرحية محمد أبو الـذهب ، وعلي بك الكبيـر، وقمبيـز ، ومصرع كليوبترا وملهاة الست هدى التي تخاطب المصري، وتتحدث عن

أحواله الاجتماعية والسياسية قديماً وحديثاً.

وهناك الوطنية الاسلامية التي تمثَّلت في موقف شوقي من الرسول(ﷺ) والخلفاء المسلمين في مختلف العصور والدول الاسلامية التي قامت، وانهارت كالأندلس، والخلافة العثمانية، وسيأتي الحديث عنها بأسلوب أوسع لاحقاً.

كما أن هناك وطنية عربية تجسَّدت في مشاركة شوقي الأقطار العربية أحزانها ومصائبها التي تعرَّضت لها على يد المستعمر، وتتمثّل هذه المواقف في قصيدته: نكبة دمشق التي يقول فيها:

سـلام مـن صبـا بـردى أرق
ودمـع لا يكفكـف يـا دمشـق

وقصيدته التي رثى فيها عمر المختار بطل ليبيا قائلاً:

ركـزوا رفـاتـك فـي الـرمـال لـواء
يستنهـض الـوادي صبـاح مسـاء

وفي رثائه بعض الشخصيات العربية مثل فوزي الغزي والشريف حسين، ونجل إمام اليمن وسواهم.

وخلاصة القول أن الوطنية عند شوقي تتمثل في:

1 ـ وطنية مصرية إزاء الأحداث السياسية تختلف قوة وتوهجاً قبل المنفى وبعده مفتونةً بالتغني بتراث مصر في

القديم والحديث، والمشاركة في الأحداث الاجتماعية.

2 ـ وطنية إسلامية عامة تتجسد في مدائحه للرسول(ﷺ) والخلفاء الراشدين، ورثائه للأندلس وموقفه من الخلافة الاسلامية في مختلف العصور ويدخل في نطاقها «الوطنية التركية».

3 ـ الوطنية «العربية العامة» تتجسد في مشاركته للبلاد العربية في أفراحها وأتراحها.

* * *

المدائح النبوية

اتخذ شوقي رسول الله(ﷺ) مثلاً أعلى له لأنه عليه السلام هو المشرع الأول، وهو القدوة، ذلك لأن شوقي رجل شديد الغيرة على دينه، يدافع عنه ما استطاع إلى ذلك سبيلا، ولن يضره ما اتسمت به حياته من هنات كانت وليدة ضعف أمام عنفوان الشباب وسلطان المراهقة، فهو رغم ما اتصف به مسلكه في حياته من أمور قد تتنافى مع الورع، احتفظ بعاطفته القوية الجياشة تجاه الاسلام، فحاول عن طريق الشعر أن ينشر الاسلام كما نشره غيره بالسيف والسنان موضحاً خصائصه، ومميزاته، وما اتسم به من عدالة وإخاء ومساواة.

لقد ملأ الإسلام قلبه بروحانيته وجلاله وملك عليه شغاف فؤاده، فأصبحت له الدالة والسلطان على وجدانه وشعوره وإحساسه، فما تكاد المناسبة تمر إلاَّ وينتهزها مشيداً بالاسلام، وما من قصيدة جادت بها قريحته وتفتَّق عنها ذهنه الصافي إلاَّ وفيها نغمة دينية صادقة مشحونة بالحرارة والإيمان، وقد سيطر عليه هذا الشعور حتى في بعض قصائده اللاهية، لأن شعوره بالفضيلة والإحساس بالذنب لا يكاد يفارقه لحظة، فإذا به يستغفر، ويأمل في

عفو الله، معلناً ندمه على ما اقترفت يداه من أخطاء، وما انغمست فيها من لهو، ويحاول تغليب العاطفة الدينية على ما سواها.

ولهذا شغل التدين أجزاء كثيرة من ديوانه، وسرى في كل غرض نظم فيه (وجدير به وهو الحريص كل الحرص على التغني بالدين في شعره الإشادة بفضله وإجلال آدابه أن يمدح صفوة الخلق، وخاتم الأنبياء والمرسلين محمد(ﷺ)، الذي حمل مشعل الهداية فأنار الطريق ليهتدي الضالون، وأزال عن القلوب غشاوتها)[1]، كما يقول د. صالح الأشتر.

لقد رسَّخ حب الرسول(ﷺ) في سويداء قلب شوقي، واحتل مكانة لم يحتلها أحد، وملك عليه جوارحه فألهب عاطفته وأجاشها، وأشعل نار الحماس فيها، فطفق يتغنى بفضائله عليه السلام وحكمته وخلقه الكريم، وعدله في كل مناسبة، فما تكلَّم في أمر من أمور المسلمين إلاَّ ومال إلى الدوحة النبوية معظماً لها علاوةً على ما اختصها به من قصائد غر في ذكرى مولده(ﷺ) (فلقد قال في نبي الإسلام أكثر من حسان بن ثابت شاعر الرسول(ﷺ)، والكميت بن زيد الأسدي ودعبل الخزاعي والبوصيري)[2].

(1) أندلسيات شوقي، ص208.

(2) حياة شوقي، ص114.

، كما قال أحمد محفوظ .

ونتيجة لذلك الشعور الديني الدافق المتوهج والإحساس المليء بالقيم، والمثل الإسلامية العليا، (نحس ونحن نقرأ نجويات شوقي أننا أمام رجل نصَّب نفسه واعظاً ناصحاً. يذكرنا بأبي العتاهية في زهده، ويجعلنا نقف إجلالاً لما يقول لأنه شاعر مسلم يخلص لدينه)[1]، كما يقول د. نجيب الكيلاني.

لقد مجَّد شوقي رسول الله(ﷺ) في جميع قصائده الدينية والوطنية التي تفيض وتعبّر عن الشعور الاسلامي المتدفق، ولكن اهتمامه بالرسول(ﷺ) تجلى في قصائده الثلاث:

1 ـ **ولد الهدى**

2 ـ **الهمزية النبوية**.

3 ـ **نهج البردة**.

ففي قصيدته «نهج البردة» حذا شوقي حذو شعراء كُثر مجَّدوا الرسول، وأشادوا بفضائله، وأذاعوا مكارمه، ولكنه تأثّر بالبوصيري في نهج البردة التي زخرت بكل معنى سام يتغنى بالإسلام فعارضه شوقي بقصيدته:

ريم على القاع بين البان والعلم
أحل سفك دمي في الأشهر الحرم

(1) شوقي في ركب الخالدين، ص114.

وقد أشار فيها شوقي إلى تعبّد الرسول(ﷺ) في غار حراء، وبسط القول في معجزاته(ﷺ) كنبع الماء بين يديه، وتظليل الغمام عليه، وشرح أثناءها حال الأمة قبل بعثته وما هي عليه من تناحر وشقاق وتمزّق وفراق، وما أصاب الروم والفرس من خوف وفزع ساعة بُعِثَ، حيث قال:

ريعت لها شرف الإيوان فانصدعت
من صدمة الحق لا من صدمة القدم
أتيت والناس فوضى لا تمر بهم
إلا على صنم قد هام في صنم
والأرض مملوءة جوراً مسخرة
لكل طاغية في الخلق محتكم
مسيطر الفرس يبغي في رعيته
وقيصر الروم من كبر أصم عم

كما دافع فيها دفاع المخلص عن الاسلام، وفنَّد، ودحض ادعاءات الأعداء والخصوم الذين رموا الرسول(ﷺ) بالظلم والعدوان لأنه غزا وقاتل مع أن الرُسل رسُل رحمة لا رُسل قتال، فقال:

قالوا غزوت، ورسل الله ما بعثوا
لقتل نفس ولا جاؤوا لسفك دم
جهل وتضليل أحلام وسفسطة
فتحت بالسيف بعد الفتح بالقلم

ما أروعها من ألفاظ كأنها قطع الألماس والياقوت أكدت علو ثقافة شوقي اللغوية والتاريخية والدينية.

ومن هذا الدفاع المخلص الذي يدحض الحجة بالحجة ويدفع البرهان بالبرهان دفاع رجل متدين متعمق في فهم الاسلام وأساليبه وطرقه التي سار عليها، تأكيده على أن الدعوة بدأت بالتي هي أحسن، ولم يسلك الرسول(ﷺ) طريق القتال إلاّ بعد حين وبأمر ربه، حيث يشير إلى ذلك قائلاً:

والشر أن تلقه بالخير ضقت به
ذرعاً وأن تلقه بالشر ينحسم

وليس ذلك مبدأ خاص بالإسلام وحده بل هو شأن جميع الديانات، وخاصة المسيحية، ديانة كثير ممن يدعون ويتجنون على الدين الاسلامي ليُنفّروا الناس منه، ويحجبوا عنهم نوره وضياءه، ويأبى الله إلاّ أن يتم نوره، ولو كره المشركون، حيث يقول:

سل المسيحية الغرّاء كم شربت
بالصاب من شهوات الظالم الظلم
لولا حماة لها هبوا لنصرتها
بالسيف ما انتفعت بالرفض والرحم

فالإسلام استعان بالسيف، كما استعانت المسيحية،

لأن الرفق لا ينفع في بعض المواضع، وقد تنفع الشدة وهو ما أثبتته الأيام بأحداثها.

وفي قصيدة أخرى هي إحدى الفرائد والغرر، ودرة من أغلى الدرر التي نظمها عقداً، وحلى به جيد السير النبوية وهي «الهمزة النبوية» يخلع شوقي على الرسول(ﷺ) أسمى سمات الفضيلة، ويكسوه من الثناء حللاً يطرّزها الإعجاب به، وتوشيها فرحة الأرض والسماء بمولده(ﷺ) حيث امتلأت الأرض نوراً وشعَّت ضياءً، وتباشرت به الملائك في السماوات، فمولده مولد العدل والصدق والاخلاص، وإيذان بوأدِ الظلم والتمزق والضياع، حيث قال:

ولـد الهـدى فـالكـائنـات ضيـاء
وفـم الـزمـان تبسّـم وثنـاء
الـروح والمـلأ المـلائـك حـولـه
للـديـن والـدنيـا بـه بشـراء

ما أحلاها من ذكرى، وما أعطرها من نفحة تزري بشذا الورد والريحان، وأنفاس السحر، وتغمرها فهي عمق روحاني وهدى رباني.

لقد هزَّت تلك الذكرى فؤاد شوقي، وملكت شعوره الديني، فألهبته، وإحساسه الإسلامي فأضرمته، فبدأ قصيدته بلا مقدماتِ غزلية، لأن الموقف أعلى شأناً من أن

يهمله لحظة أو يغفل عنه هنيهة يبعد فيها عن هذا الجو الروحاني، فلا مطلع أحلى من هذا المطلع، ولا بدء أورع من هذا البدء المشحون بإيمان راسخ رسوخ الجبال.

لقد سار شوقي في قصيدته تلك على النهج الذي اختطَّه لنفسه في قصيدته الآنفة الذكر «نهج البردة» فصوَّر فيها تصوير البارع القدير الدوي الذي أحدثه مولد الرسول(ﷺ)، وكيف قلب موازين القوى في عالم تسوده شريعة الغاب، إذ ارتجَّ إيوان، كسرى وسقطت شرفاته، وخبت نار فارس بعد طول اشتعال، وغاضت بحيرة طبرية، واستولى الخوف والذعر على ملوك الظلم والتعَسُّف والاستبداد.

ذعرت عروش الظالمين فزلزلت
وعلت على تيجانهم أصداء
والنار خاوية الجوانب حولهم
خمدت ذوائبها، وغاض الماء

وهكذا في كل بيت يفوح شذا سيرة الرسول العطرة، وفضائله، وخصاله الحميدة: عفو عند المقدرة، وشجاعة وكرم وحلم، وغضب للحق، وعدل بين الزوجات، وتواضع، ومشاورة الصحابة في الأمور المهمة، إذ لا يستقل(ﷺ) برأيه مع أنه لا ينطق عن الهوى، حيث يقول شوقي:

وإذا عفـــوت فقـــادراً ومقـــدراً
لا يستهيـــن بعفـــوك الجهـــلاء
وإذا رحمـــت فـــأنـــت أم أو أب
هـذان فـي الـدنيـا همـا الـرحمـاء
وإذا غضبـت فـإنمـا هـي غضبـة
فـي الحـق لا ضغـن ولا بغضـاء
وإذا بنيـــت فخيـــر زوج عشـــرة
وإذا ابتنيـــت فـــدونـــك الآبـــاء
وإذا مشيـت إلـى العـدا فغضنفـر
وإذا جـريـت فـإنـك النكبـاء
وتمـد حلمـك للسفيـه مـداريـاً
حتـى يضيـق بعـرضـك السفهـاء
والـديـن يسـر والخـلافـة بيعـة
والأمـر شـورى والحقـوق قضـاء

ويستمر في إبداعه محلقاً يعانق الجوزاء في رحاب الفضـاء، مقلـداً سيـرة الـرسـول درراً قيّمـة مـن نظمـه، ساكباًعليها عطور كلمه، مدافعاً ومنافحاً عن تلك المحجة البيضاء التي ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلاَّ هالك لأنها أسس الحضارة وأساس التقدم، فيقول:

ظلمـوا شـريعتـك التـي نلنـا بهـا
مـا لـم يُنَـل فـي رومـة الفقهـاء

مشت الحضارة في سناها واهتدى
في الدين والدنيا بها السعداء

وفي درته الأخرى (ولد الهدى) ومطلعها:

سلوا قلبي غداة سلا وطابا
لعلَّ على الجمال له عتابا

يكرر شوقي تلك المعاني التي سبق ذكرها في قصيدتيه السابقتين، وما ذلك إلاَّ لاعتقاده أن سيرة الرسول(ﷺ) لها من العظمة والهيبة والجلال ما لا تحيط به المعرفة، ولا تعبّر عنها قصيدة أو قصيدتان، حتى لو أعطى الواصف فصاحة سحبان وبلاغة الجاحظ، لذا حرص شوقي إزاء ذلك على أن يبرزها في صور مختلفة وأساليب متنوعة وبرود متعددة الألوان، ولكنها متفقة جميعها على ما تحويه وما تشتمل عليه من خصال وخلال حميدة وسجايا فريدة لا يداني الرسول(ﷺ) فيها جميع البشر.

يقول شوقي بعد مقدمة شرح فيها حال الدنيا مادحاً الرسول(ﷺ):

نبي البر بينه سبيلاً
وسن خلاله، وهدى الشعابا
تفرق بعد عيش الناس فيه
فلما جاء كان لهم مثابا

وشافى الناس من نزعات شر
كشاف من طبائعها الذئابا

لقد كانت بعثة محمد(ﷺ) أشبه بغريض سارية جاءت به على أرض بعد طول جدب وقحط وإمحال، فعادت مرعى أمرع، وجنة خضراء، فجدير أن تفرح البشرية به كما تفرح الأرض الجدبة بالمطر، وأن تعم البهجة كل منزل في حاضرة وبادية، حيث يقول:

تجلى مولد الهادي وعمت
بشائره البوادي والقصابا
وأسدت للبرية بنت وهب
يداً بيضاء طوَّقت الرقابا
لقد وضعته وهَّاجاً منيراً
كما تلد السماوات الشهابا
فقام على سماء البيت نوراً
يضيء جبال مكة، والنقابا
وضاعت يثرب الفيحاء مسكاً
وفاح القاع أرجاءً وطابا

وهكذا جعل «المولد» شوقي يعيش في جو ديني محض، فانقطعت بينه وبين زخارف الدنيا وزيفها الوشائج والأسباب، فهو يعيش مع الرسول(ﷺ) بذكراه، في ثياب المؤمن الكامل الإيمان، وكأنه يرى الرسول(ﷺ) حياً

أمامه، فيناجيه في أسلوب حزين مصوراً ما آل إليه أمر المسلمين حينما تنكبوا الجادة، وحادوا عن الصواب فيقول:

وما للمسلمين سواك حصن
إذا ما الضر مسهمُ ونابا
كأن النحس حين جرى عليهم
أطار بكل مملكة غرابا
ولو حفظوا سبيلك كان نوراً
وكان من النحوس لهم حجابا

ترنيمة دينية حزينة، ونغمة شجوى تنبع من قلب شوقي، فلقد أضاع المسلمون «سبيل الرسول(ﷺ)» وجانبوا الصواب، فتكالبت عليهم قوى الغَدر والعدوان، وصحَّ فيهم قوله(ﷺ): «يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها» (الحديث).

هذا هو شوقي في موقفه تجاه منقذ البشرية وهاديها(ﷺ)، عاطفة صادقة ووجدان مليء بالإيمان، وحب بكل جارحة تحولت إلى قصائد رائعة يكاد لا يجاريه فيها شاعر آخر.

لقد كان شوقي شاعراً إسلامياً يوجه نفسه إلى كل منابر وفضائل الاسلام ويزيد من حقائقه السامية توضيحاً وتنويهاً.

(لقد كان رحمه الله من أولئك البناة الذين شيَّدوا في قلوب الجماهير الشرقية صرحاً رفيعاً من حب الإسلام وتقدير الرسول(ﷺ)، وهذه القصائد التي كان ينظمها في مدح النبي(ﷺ) هل استطاع واحد من شعراء الإسلام أن ينتج خير منها؟ المهم لا)[1] كما قال عبد العزيز الاسلامبولي ، ولهذا كان شوقي جديراً بلقب (شاعر الاسلام)[2]، كما لقَّبه بذلك الدكتور محمد حسين هيكل.

وليست هذه القصائد هي كل ما جادت به قريحة شوقي في مدح الرسول(ﷺ)، فله من صفاء القريحة وتوقّد الذكاء ما يحول بينه وبين النضوب، فهو الشاعر الذي يفيض الشعر فيه وينهمر كما ينهمر المطر من الغمام.

ولتوسع شوقي في هذا المجال اكتفيت بالاشارة الى أهم قصائده للتأكيد على أن شوقي كان في مقدمة الشعراء الذين دافعوا عن الإسلام ،وجاهدوا حق الجهاد القائم على ثقافة متنوعة المصادر، فجاءت قصائده في مكان سام، ومنزلة عالية بين قصائد من أسهموا بشعرهم في ميدان المدائح النبوية.

* * *

(1) مجلة المعرفة، نوفمبر 1932 ص 575، مقال لعبد العزيز الاسلامبولي.
(2) مجلة المقتطف، مجلد 68، ص 582، عام (1926م).

الخلافة العثمانية

منذ قيام الخلافة العثمانية على يد المؤسس الفعلي «عثمان بن طغرل» سنة 699م والمسلمون يرون في العثمانيين خير خلف لخير سلف، فهم خلفاء الله في أرضه والمحامون على دينه الذي بعث به محمد(ﷺ)، فالتف المسلمون حولهم، وأولوهم طاعتهم وأسلموا إليهم قيادتهم، لأن في بقائهم بقاءً للإسلام، وفي عزهم عزاً له ومنعة.

فهم رمز الوحدة والقوة والاتحاد، وهي مبادىء طالما دعا إليها الإسلام، ونتيجة لذلك لم يستطل المسلمون حكمهم رغم ما أصابهم من ظلم، لأنه نشأ قوياً، واكتسح القوى التي أمامه، وأخضعها فأصبح حكمهم بذلك صورة مشرفة لمجد الخلافة الإسلامية التي حطمها التتار سنة 656هـ حينما سقطت بغداد.

وحينما ضعف العثمانيون لم يتغير عليهم المسلمون الحقيقيون، بل كانت مشاعرهم معهم، وقلوبهم تدعو لهم بأن يستعيدوا قوتهم بعد ضعف، ونشاطهم بعد وهن، وصبروا نتيجة ذلك على ما أصابهم على أيدي بعض الخلفاء العثمانيين المتأخرين من مظالم، كفرض الضرائب

والمكوس المرهقة وإهمال شأن التعليم، قد تكون الظروف الاقتصادية والعسكرية سببها الأول.

منذ القراءة الأولى يستطيع الإنسان أن يعرف موقف شوقي من الخلافة العثمانية ويتبينه. فلقد وقف من الخلافة موقف إخوانه المسلمين المخلصين، لم يتأخر عنهم أو يتخلف عن مشاركتهم فرحهم وترحهم لحظة واحدة، وهو في ذلك منطلق من نفحة إسلامية خالصة نقية نقاء الذهب، فهو يرى في العثمانيين أمل المسلمين، ورمز وحدتهم وحاملي لوائهم والسائرين به الى الأمام، كما كان للدماء التركية التي تجري في عروقه دور بارز في هذا الاتجاه، لأنه يعود بنسبه إلى الأتراك من جهة أبيه، فاتَّحد هذان الاتجاهان في مصب ثري دافق هو: العاطفة الاسلامية التركية، كما ساعده على ذلك رضا خفي وسرور بهذا الاتجاه من قبل الخديوي عباس الذي كان يميل قلبه سراً إلى العثمانيين لا الإنجليز.

من هنا تغنَّى شوقي في شعره بالأتراك، فمجّد انتصاراتهم، وحزن لهزائمهم، وهنَّأ خلفاءهم، وانتصر لهم، منطلقاً من ذلك الاحساس الصادق الجيَّاش، (فهو أكثر شعراء مصر تمجيداً للأتراك، أشاد بالخلافة وولاء الخلافة، ولطالما مجد الترك إذا انهزموا، ونوَّه

ببطولاتهم)[1]، كما ذهب الى ذلك الدكتور الحوفي.

إلاَّ أنه يجب التنبيه إلى أمر مهم قبل الاسترسال في الموضوع، هو أن الاسلام هو الدافع الأول لشوقي، قبل العاطفة التركية التي تعتبر مكمِّلة له، وذلك خشية أن يذهب الذهن إلى أن لعلاقة النسب المكانة الأولى، فيتطرَّق الشك إلى الدافع الحقيقي، وهو الإسلام، فيوصف بالضعف الذي يقصر بشوقي عن أن يكون شاعر الخلافة، كما حدث بشأن وطنيته.

كذلك لم تكن سياسة القصر تمنعه أو تحدّ من تغنّيه بمآثر العثمانيين، كما كان شأنها مع شوقي في شؤون أخرى، وخاصة في موقفها من وطنيته، بل إن سياسة القصر تحتم عليه مثل هذا العمل، وتدفعه إليه وتشكره منه، لأن مديحه للعثمانيين مديح لآل الخديوي توفيق وعباس، (فالخليفة والشعب التركي لا يقرؤونه هذه الأشعار التركية، فشوقي ينظم بلغة لا يفهمونها)[2]، كما يقول الدكتور شوقي ضيف.

هنا يتَّضح سرّ إجادة شوقي، وإكثاره من إسلامياته، حيث نجدها تشمل حيزاً كبيراً من ديوانه، فحينما ينظم مادحاً

(1) وطنية شوقي، ص320.

(2) شوقي شاعر الحديث، ص125.

السلطان عبد الحميد إنما يمدح في شخصه عباس وتوفيق، ويعدد فضائل الإسلام فيكون بذلك قد رمى «ثلاثة عصافير بحجر واحد» مدح الخليفة، ومدح سيده الخديوي، ومدح الإسلام، فرضوا عنه وسامحوه على هناته وهفواته.

كان شوقي يقوم بنشر تلك القصائد في الصحف، وخاصة الأهرام، ليقرأها الناس في جميع أقطارهم، لأن الصحف هي التي تربط بين أفكار العرب والمسلمين، رغم النأي والبعد، إذ يقرؤها الجميع فيجدون فيها بغيتهم.

وقد سار شوقي في موقفه من الخلافة العثمانية ينظم الشعر في صيغ مختلفة حسب الحالة التي تعيشها الخلافة، فتغنى بهم وأطنب في مديحهم، وهنَّأهم حينما انتصروا بقيادة الغازي «أتاتورك» في معركة سفاريا حيث يقول:

الله أكبر كم في الفتح من عجب
يا خالد الترك جدِّدْ خالد العرب

فانتصاره فتح أكبر يعيد أمجاد بدر وحطين، وليس انتصاراً للأتراك وحدهم بل والمسلمين، كما صوَّر في تلك القصيدة صبر الأتراك على المصائب، وجلدهم على النوائب حيث يقول:

للترك ساعات صبر يوم نكبتهم
كتبن في صحف الأخلاق بالذهب

جمعن في اثنين من دين، ومن وطن
جمع الذبائح في اسم الله والعرب

واستمرَّ مطنباً في نظم درره، ليصنع منها عقداً يزيّن جيد الخلافة. فوصف المعركة، وما دار فيها من كرٍ وفر وحصار، وإقبال وإدبار، وكيف انتصر الأتراك فيها مشبهاً إياها بمعركة بدر قائلاً:

يوم كبدر فخيل الحق راقصة
على الصعيد، وخيل الله في السحب

ثم قال مهنئاً الغازي، وفي تهنئته تهنئة للخلافة والخليفة:

تحية أيها الغازي، وتهنئة
بآية الفتح تبقى آية الحقب

فما أجدره والأتراك بالتهنئة، وما هو أعظم منها لما قدموه للإسلام من خدمات جلى سيكتبها التاريخ بمداد من نور على صفحات من الذهب، فهم أبطال معركة، وروَّاد مملكة، آساد حرب وليوث وغى.

كما صوَّر شوقي في صدق فرحة المسلمين وغيرهم في جميع الأصقاع بهذا الانتصار الذي كللهم بالغار قائلاً:

هزت دمشق بني أيوب فانتبهوا
يهنئون بني حمدان في حلب

ومسلمو الهند والهندوس في جذل
ومسلمو مصر، والأقباط في طرب
ممالك ضمها الإسلام في رحم
وشيجة، وحواها منه في نسب

وهو في هذه القصيدة يتبع خطى «أبي تمام» في قصيدته فتح عمورية التي مدح بها المعتصم العباسي، ولعلَّ تشابه الموقفين فرض على شوقي تشابه القصيدتين بحراً ورويّاً.

وقد سار على هذا المنوال المتألق في قصيدة أخرى، لها نفس المناسبة، إذ أنها قيلت أيام الوقائع العثمانية اليونانية، وهي قصيدة بل ملحمة صدى الحرب، حيث يقول:

بسيفك يعلو الحق والحق أغلب
وينصر دين الله أيّان تضرب

وهنَّأ فيها الخليفة بعيد «الجلوس الأسعد» معدداً ما تحلّى به من حلو الشمائل وحميد الخصال قائلاً:

نهضت بعرش ينهض الدهر دونه
خشوعاً، وتخشاه الليالي، وترهب
يكون على متن الوجود مؤيد
بشمس استواء مالها الدهر مغرب
فكنت كعين ذات جري كمينة
تفيض على مرّ الزمان، وتعذب

سهـــرت فنـــام المسلمـــون بغبطـــة
ومـا يـزعـج النـوام، والسـاهـر الأب
فنبهنـــا الفتـــح الـــذي مـــا بفجـــره
ولا بـــك يـــا فجـــر الســـلام مكـــذب

كمـا وصـف فيهـا شجـاعـة الجنـود الأتـراك «جنـود المسلمين» قائلاً:

ملكـت سبيليهـم ففـي الشـرق مضرب
لجيشك محدود، وفي الغرب مضرب
ثمـانـون ألفـاً أسـد غـاب ضـراغـم
لهـا مخلـب فيهـم، وللمـوت مخلـب

وشجاعة المرأة التركية ممثلة في زينب بنت عثمان حيث يقول:

ومـــا راعنـــي إلا لـــواء مخضـــب
هنـــالـــك يحميـــه بنـــان مخضـــب
فقلـت مـن الحـامـي؟ أليـث غضنفـر
مـن التـرك ضـار أم غـزال مـربـرب
أم الملـك الغـازي المجـاهـد قـد بـدا
أم النجـم فـي الآلام، أم أنـت زينـب!

كما تحدث فيها عن انتصار الأتراك وهزيمة أعدائهم، فقال متسائلاً مستهزئاً:

فيا قوم أين الجيش فيما زعمتُم؟
وأين الجواري، والدفاع المركب؟
وأين أمير البأس والعزم والحمى؟
وأين رجاء في الأمير مخيب؟

ثم وجه خطابه إلى السلطان عبد الحميد طالباً الصفح عنهم، فالعفو عند المقدرة من شيم الكرام فقال:

فعفواً أمير المؤمنين لأمة
دعت قادراً ما زال في العفو يرغب
ضربت على آمالها ومآلها
وأنت على استقلالها اليوم تضرب

فلقد عفا الرسول(ﷺ) عن أسرى بدر، وعن أسرى مكة، وقال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء».

هذه ملحمة سطَّرها «شوقي» معبراً عن فرحته بانتصار الأتراك في السياسة والحرب، فما هو موقفه من المصائب والمكائد التي تحاك ضد دولة الإسلام؟

لقد كان موقف المؤمن الصادق الإسلام، والقلب المليء بالايمان، وقد تجلى ذلك سنة 1905م عندما حاولت يد أثيمة أن تمتد بالسوء إلى السلطان عبد الحميد، حيث ألقت عليه قنبلة في محاولة لنسف رمز وحدة المسلمين، وشاء الله أن تخطىء تلك اليد المشؤومة هدفها، وينجو

السلطان عبد الحميد من موت محقق لولا لطف الله وعنايته، فهزَّت هذه الحادثة وجدان شوقي لأنه يحترم السلطان عبد الحميد كمسلم، وبحبه كتركي تربطه به صلة النسب، فقال مهنئاً له في قصيدة بعنوان (نجاة):

هنيئـاً أميـر المـؤمنيـن فـإنمـا
نجـاتـك للـديـن الحنيـف نجـاة
هنيئـاً لطـه، والكتـاب وأمـةٍ
بقـاؤك إبقـاء لهـا وحيـاة

فلو قتل الخليفة لكان أحرى أن يزول عز المسلمين وتضمحل منعتهم التي كان الخليفة رمزاً لها، ولكن الله سلَّم فسلِم الخليفة، وبقي الإسلام قوياً:

فلـولاك ملـك المسلميـن مضيـع
ولـولاك شمـل المسلميـن شتـات
نجـت أمـة لمـا نجـوت ودوركـت
بـلاد وطـالـت للسـريـر حيـاة

والملاحظ أنه كرر في أكثر من موضع من قصيدته تلك «معنى سلامة الخليفة» من الاغتيال..، وفي هذا التكرار دليل قوي على الفرح العارم الذي يملأ قلب شوقي ويغمر وجدانه، فما التكرار إلاَّ زيادة في المعنى، ولم يكن ترفاً.

ويشاء الله أن يسقط السلطان عبد الحميد عام (1908م)،

وكأن الأيام قد استطالت حكماً طال «ثلاثين عاماً» إذ قام انقلاب بقيادة الغازي أتاتورك، فخلعه عن الخلافة وولى مكانه أخوه محمد الخامس فتبدَّلت نغمة العاطفة دون ضعف، وانقلب فرحها نواحاً، وعزفت أنغام الحزن والأسى والأشجان، فقال من قصيدة بعنوان الانقلاب العثماني:

سـل يلـدزا ذات القصـور
هـل جـاءهـا نبـأ البـدور

وقد شرح في مقدمتها ما كان عليه السلطان عبد الحميد حينما كان يعتلي سدَّة عرش الخلافة من إكرام وتكريم، ثم قال يخاطبه في حزن وأسى:

عبد الحميد حساب مثلك في يد الملك الغفور
سدت الثلاثين الطوال، ولسن بالحكم القصير

ومن هؤلاء «الانقلابيون» أنهم قوم تربّوا في كنف السلطان عبد الحميد، وطالما قبّلوا يديه، ولكنه الدهر، قلب لعبد الحميد ظهر المجن وليس له جلد النمر.

دخلوا السرير عليك يحتكمون في رب السرير
قـالـوا اعتزل. قلت: اعتـزلـت الحكـم لله القـديـر
صبروا لدولتك السنين، وما صبرت سوى شهور

ولكن ماذا يفعل شوقي أكثر من تلك المشاركة الوجدانية

للسلطان المخلوع التي لا تغير شيئاً في مجرى الأحداث؟ فالأمر قضاء الله وقدره، فلا بد له من أن يؤمن بالقدر خيره وشره، فتوجه بخطابه إلى الانقلابيين، وهنَّأهم باسم المسلمين في محاولة لرأب الصدع، فهم الآن السادة، وبأيديهم مقاليد الأمور، وزمامها، فعسى الله أن يُعليَ بهم دينه، ويصلح بهم شأن قوم مؤمنين، فقال مخاطباً السلطان محمد الخامس الذي نصّبه الانقلابيون مكان أخيه، وهو في الحقيقة يخاطبهم عن طريق غير مباشرة لأن هذا الخليفة ليس له إلاَّ الاسم فقط، إذ الحل والعقد بيد هؤلاء.

المؤمنون بمصر يهدون السلام إلى الأمير
ويبايعونك يا محمد في الضمائر والصدور

وانطلاقاً من هذا الحب الذي لم يكن للسلطان عبد الحميد في شخصه فقط، بل لكونه رمزاً للمسلمين أولاً، قال شوقي فيه كلمة رثاء هو جدير بها، ولكنه صرف النظر عنه بعد أن أصبح شخصاً عادياً، واتجه إلى الحاكم الجديد يخاطبه بلسان حال تؤكد إسلاميتها قبل تركيتها، ولكنها لم تنقلب إلى اتجاه مضاد للسلطان المخلوع فتهجوه بعد مدح، وتذمه بعد ثناء، وهذا في رأيي قمة الالتزام المخلص.

وتأتي القشة التي قصمت ظهر البعير حينما قام الغازي «أتاتورك» بعد أن حقق الأمجاد، والانتصارات الباهرة للدولة العثمانية قام بالانقضاض على الخلافة وإلغائها من

الوجود نهائياً ونفيه للسلطان عبد المجيد الثاني عام (1923 م) مما يؤذن بافتراق المسلمين الذين كانوا يظنون أن الخطر قادم من الخارج، فإذا به ينبعث من الداخل ومن الأبناء أنفسهم.

ولذا فالجرح عميق، والأمر أدهى وأمرّ لأن جرح الأحبة أليم.

اهتز شوقي أمام تلك المصيبة، والأمر الجلل، والعاصفة الهوجاء، وكان يُظن أنها تلجم لسان شوقي لعظمها وفداحتها، فيبقى حائراً، يتجرع كؤوس الأسى والحزن ويغالب الصبر، والصبر يغالبه دون أن يستطيع التعبير عن مشاعره المكبوتة، كما هي الحال بالنسبة لكثير من كتّاب المسلمين وشعرائهم الذين ألجمتهم المصيبة، وأخرست ألسنتهم، ولأن الحب أكثر ما يتوهج ويشتعل أمام الحوادث الكبيرة، اشتعل أوار عاطفة شوقي وزاد ضرامها، إلاَّ أنَّ رجعها هذه المرة كان نواحاً، فقال من قصيدة بعنوان خلافة الاسلام:

عادت أغاني العرس رجع نواح
ونعيت بين معالم الأفراح

لقد سقط اللواء، وعمَّت البلوى، فرسم شوقي في صورة حزينة شجية، وفي نغمة رومانسية باكية صدى الحادث، وردود الفعل إزاءه في جميع الأقطار الاسلامية،

لأن المسلمين كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى حيث قال:

ضجَّت عليك مآذن ومنابر
وبكت عليك ممالك ونواح
الهند والسند، ومصر حزينة
تبكي عليك بمدمع سماح
والشام تسأل والعراق وفارس
أمحا من الأرض الخلافة ماح؟

ويتساءل شوقي من وأد الخلافة؟ من قتلها؟ ثم يجيب:

إن الذين أست جراحك حربهم
قتلتك سهمهمُ بغير جراح
هتكوا بأيديهم ملاءة فخرهم
موشية بمواهب الفتاح

هكذا قتل الأبناء أماً تربوا في حجرها، وتقلبوا على وسائد حنانها، ومن مأمنه يؤتى الحذر.

ولكن ماذا يفعل شوقي؟ هل يسب ويشتم من ألغى رمز المسلمين بعد أن نظم في مديحه درر الكلام، وثمين جواهره؟ لا، فليس ذلك من خلق الكرام، ولئن فعل ذلك فلن يغير من الواقع شيئاً، بل ربما يدفع قوله أتاتورك إلى التمادي في غيه، وأن يفعل أعظم مما فعل. فما الحل إذاً؟

لينصح المسلمون الغازي ، هذا رأي شوقي ، لعلّه بنتصح فلا يدور فخر الانتصار برأسه، ولعلّه يرجع إلى الهدى والحق، بعد أن ألغى الخلافة، وفرّق المسلمين، وألغى الكتابة بالخط العربي ليقطع ما بينه وبين المسلمين من وشائج وصلات قربى حيث يقول:

أدوا إلى الغازي النصيحة ينتصح
إن الجواد يثوب بعد جماح
حب لذات الله كان، ولم يزل
وهوى لذات الحق والإصلاح

ولكن لا تزداد المصيبة بأخرى، ويعالج الداء بداء، ويزداد الطين بلة، ويتعمق الأسى.

كما حذَّر شوقي المسلمين من قلب نصوح، وفؤاد محب، ألاَّ يسلموا قيادهم بعد أن أصبحوا تائهين ضائعين إلى العاجز «الحسين بن علي» الذي لا يملك إلاَّ يداً خالية، كما أنه السبب في زوال الخلافة، حيث عمَّق الجراح بمساعدته للإنجليز ضد الأتراك في الحرب العالمية الأولى، وشقَّ عصا الطاعة بخروجه على إرادة الخليفة، فكيف بمن جرح المسلمين أمس أن يواسيهم ويبرى جراحهم اليوم.

لا تبذلوا برد النبي لعاجز
عزل يدافع دونه بالراح

بـالأمـس أدهـى المسلميـن جـراحـه
واليـــوم مـــدَّ لهـــم يـــد الجـــراح

وبعد هذا كفَّ شوقي عن التباهي بالخلافة أيام مجدها، والتباكي عليها بعد زوالها، وبعد أن ذبلت الزهرة، وجفَّ النبع الذي يستقى منه المسلمون عزهم، فلم يعد هناك سبب يدفعه لأن ينظم، وحسبه أنه أرضى الله ونفسه والمؤمنين.

وقد اعتبر الدكتور محمد أحمد الحوفي ذلك على أنه (برهان يخرس ألسنة الذين اتهموا شوقي مدافعة بصدق العاطفة الإسلامية عنده، وأنه لولا العاطفة التركية لما كانت عاطفته الإسلامية شيئاً يذكر، لأنه لو كان كما زعموا، لمدح الغازي أتاتورك لكونه تركياً، كما مدح من قبله، ولكنه لم يفتح فمه أو يتفوَّه بكلمة مديح أو إطراء في مدح من أزال الخلافة وقضى عليها، بل حاول نصحه أولاً ثم حمل عليه ذاماً طريقته لأنه لما قضى الأمر، وألغى مصطفى كمال الخلافة، وسار في طريق العزلة نزع شوقي يده من الخلافة في تركية، وعقل لسانه، فلم ينشد بيتاً واحداً في الخلافة الإسلامية العثمانية، وإنما حمل على العثمانيين المعتزلة)[1].

* * *

(1) وطنية شوقي، ص33.

التاريخ الاسلامي والبطولات العربية

تطرَّق شوقي إلى هذا الموضوع «الهام» في شعره كما تطرَّق إلى الأغراض الشعرية الأخرى، انسجاماً مع تربيته الإسلامية العربية، وبقوة الاتجاه الديني الذي يرى في التغنّي بأمجاد المسلمين ومفاخرهم أمراً مهماً، ومسؤولية يجب أن يساهم كل مسلم في أدائها وفق اختصاصه وقدرته.

وكما وقف شوقي من الرسول(ﷺ) موقفاً مشرِّفاً، ومدحه بالقصائد الجياد، وقلَّد سيرته من نظمه درراً ثمينة، وجواهر قيِّمة، كذلك خلع على تاريخ المسلمين وبطولاتهم ثياب الثناء، وكساها برود الفخر، وأحاطها، ووشاها بهالة من المجد والإعجاب، وصوَّرها تصويراً صادقاً مبرزاً ما اتسمت به من خصائص عجزت عن تحقيقها الممالك الأخرى التي حكمت العالم قديماً وحديثاً.

ويهدف شوقي من وراء ذلك إلى إكبار الأمتين العربية والإسلامية في قلوب أبنائهما لكي يتبعوا أسلافهم، ويقتدوا بهم، ويتحملوا المسؤولية، ويستأنفوا مسيرة المجد التي تخلّوا عنها نتيجة تفرّقهم لتعود للأمتين العربية والإسلامية قوتهما، ويعود إليهما مجدهما.

ولكن شوقي لم يفرد لتلك المواضيع فصولاً خاصة، وإنما أفرد لبعضها، وتحدَّث عن بعضها عرضاً في سياق أغراض تمتّ إليها بصلة، حيث أفرد للأندلس قصائد خاصة، وكذلك الشأن مع بعض الزعماء، وبطولاتهم كعمر المختار، ولكنه دعا الى جهاد المستعمرين من خلال تلك القصائد، وهذا السبب في الحديث عن تلك الجزئيات تحت عنوان واحد، وبسط القول فيها كوحدة ذات أجزاء يكمل بعضها بعضاً.

فبالنسبة للتاريخ الاسلامي، أسهب شوقي في هذا المجال، لأنه تاريخ مستمد من سيرة الرسول(ﷺ)، وخلفائه من بعده، وآثارهم التي تركوها، وطبيعياً أن تتفتح وتتوهج عنده الرغبة الصادقة التي تدفعه إلى القول، وتطلق عقال لسانه ليجري الشعر منه جري الخيل في المضمار الرحب، ولتتسابق الألفاظ والمعاني، وتتزاحم كما تتزاحم الإبل الظامئة على منهل الماء العذب.

لقد حول شوقي التاريخ الإسلامي إلى ملحمة رائعة في كتابه «دول العرب وعظماء الاسلام» كما تكلَّم عنه في ديوانه الشوقيات.

رأى في رجالات الإسلام، وأبطال العرب خير الرجال الذين حملوا المسؤولية وأدوها خير أداء، فطفق يتغنى

بهم، ويفاخر بأفعالهم، ويؤدي حقهم عليه بنشر أمجادهم وبطولاتهم في مدحه ورثائه.

فهذا «أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب» رضي الله عنهم. الخلفاء الراشدون، وكذلك عمر بن عبد العزيز. قد أدّوا لأمة الإسلام خدمات جلَّى، فقال شوقي منوهاً ببطولاتهم في قصيدة نهج البردة:

من في البرية كالفاروق معدلة
وكابن عبد العزيز الخاشع الحشم
وكالإمام إذا ما فض مزدحماً
بمدمع في مآقي القوم مزدحم
الزاخر العذب في علم، وفي أدب
والناصر الندب في حرب وفي سلم
أو كابن عفان والقرآن في يده
يحنو عليه كما تحنو على الفطم
ويجمع الآي ترتيباً وينظمها
عقداً بجيد الليالي غير منفصم
جرحان في كبد الاسلام ما التأما
جرح الشهيد، وجرح بالكتاب رمي
وما بلاء أبي بكر بمتهم
بعد الجلائل في الأفعال والخدم

وحين يتكلم شوقي عنهم لا يعدو الحقيقة فيصفهم بما ليس فيهم، وإنما يدور في فلك الحق، لا يعدوه فهو مجال رحب، وقد ضربوا فيه بسهم وافر، فهل هناك أسمى من عدل الفاروق، وعمر بن عبد العزيز، وشجاعة علي بن ابي طالب، وأفضل من جمع عثمان بن عفان للقرآن، وهو الجمع الثاني حينما وحَّد الناس على مصحف واحد، وملازمته له حتى قتل، وهو بين يديه يتلوه حتى تقاطرت دماؤه الزكية على صفحاته الكريمة، وأي فعل كفعل أبي بكر ، الذي صدَّق الرسول (ﷺ) حين كذَّبه الناس، وأعتق ضعاف المسلمين لوجه الله تعالى ليخلّصهم من تعذيب أسيادهم الذين أعماهم ظلام الكفر؟. ليس أعظم من تلك الأعمال إطلاقاً التي تستحق أن تكتب بماء الذهب .

وهل ترك شوقي بقية المسلمين؟ كلاَّ بل شكر لهم جهادهم ودفاعهم عن الإسلام، وحسن بلائهم، ولكنهم أكثر من أن يعدوا، وإنما خصَّ «الخلفاء» لأنهم القادة أصحاب الفضل، فحق له أن يخصهم ويميزهم، أما البقية فكلهم سواء، ولو أراد أن يتكلم عن كل شخص على حدة، لما استطاع ذلك حتى لو عمر ما عمر نوح، فقال على سبيل الإجمال مخاطباً الرسول(ﷺ):

مهما دعيت إلى الهيجا، وقمت لها
ترمي بأسد، ويرمي الله بالرجم

على لوائك منهم كل منتقم
لله مستقتل في الله معتزم
مسبح للقاء الله مضطرم
شوقاً على سابح كالبرق مضطرم
بيض مفاليل من فعل الحروب بهم
من أسيف الله لا الهندية الخذم
كم في التراب إذا فتشت عن رجل
من مات بالعهد أو من مات بالسقم

ويقول:

كم شيّد المصلحون العاملون بها
في الشرق، والغرب ملكاً باذخ العظم
للعلم للعدل، والتمدين ما عزموا
من الأمور، وما شدوا من الحزم

لقد وهبوا الله أرواحهم، وخدموا الدين بأموالهم وأولادهم، ألم يقل أحدهم: (بخٍ بخٍ) ، " أليس بيني وبين الجنة أن يقتلني هؤلاء"؟. وقاتل حتى قتل. ألم يقوموا الليل يصلون والناس نيام يدعون الله أن يهب لهم الشهادة، ألم يزعزعوا عروش قيصر وكسرى وسواها، ويفتحوا الأندلس والسند ويرغموا ملك الصين على دفع الجزية ؟ بلى والله فما أجدرهم بالثناء وما أجدرنا بأن نفتخر بهم .

ولم ينسَ شوقي الخلفاء الأمويين والعباسيين وغيرهم، إذ تطرق إليهم في كتابه «دول العرب وعظماء الاسلام» مما لا يتسع الميدان لذكر نماذج منه.

كما اتجه شوقي الى ناحية أخرى في التاريخ الاسلامي. هي «رثاء الممالك الزائلة» تابعاً في ذلك شعراء سبقوه في هذا المجال مثل البحتري وأبي البقاء الرندي وابن الآبار القضاعي، وسواهم من الشعراء الإسلاميين الذين مروا بتلك الأطلال أو شاهدوها وهي تتهاوى بعد طول شموخ، ويتجلى ذلك في أندلسيات شوقي التي قالها في منفاه حينما رأى أطلال قصر الحمراء، وبقية المدن الأندلسية، التي شهدت فيما مضى عز المسلمين، وعاشت في عهدهم أسعد أيام تقدمها وازدهارها، فلما بكى شوقي ذلك المجد الزائل كانت قصائده شجية حزينة مصدرها قلب «شبم» فقال متتبعاً خطى «البحتري» آخذاً منه رفيقاً وسميراً في رحلة الأحزان في قصيدة بعنوان الرحلة إلى الاندلس:

لم يرعني سوى ثرى قرطبي
لمست فيه غبرة الدهر خمسي
قرية لا تعد في الأرض كانت
تمسك الأرض أن تميد وتسي
فتجلَّت لي القصور وما فيها
من العز في منازل قعِس

وإذا الـــدار مـــا بهـــا مـــن أنيـــس
وإذا القـــوم مـــا لهـــم مـــن محـــسّ

وقد صدق في تصوير ما رأى، حتى ليحس القارىء أنه يلمس هذه الآثار بيديه كالبحتري تماماً حين قال في وصف ايوان كسرى:

يغتلـــي فيهـــم ارتيـــابـــي حتـــى
تتقـــــراهـــــم يـــــداي بلمـــــس

وفي سنة (1925م) ثار «سلطان باشا الأطرش» في سورية على المستعمرين الفرنسيين، فتكلمت لغة المدافع، وتعطّلت لغة الكلام إذ دخل الفرنسيون دمشق وهدموها ودمروها وجعلوها خراباً يباباً، واشتدوا إثر أهلها قتلاً وصلباً وسجناً، وأبى الفرنسيون إلاّ أن يكرروا سيرة «هولاكو» وما فعله ببغداد سنة 656، فنزل فعلهم الشنيع على الوطنيين نزول الصاعقة، فبكوا الأبرياء بكاءً مراً، ورثوهم رثاء الصدق المتّشح بوشاح الحزن، وشارك شوقي في ذلك ضارباً على الوتر الحسّاس عند الوطنيين السوريين، فحذرهم من خدع السياسة الاستعمارية الفرنسية تحذير الخبير بمكائد المستعمرين التي عرفها من خلال حياته في القصور الخديوية حيث قال في قصيدة بعنوان نكبة دمشق:

ســـلام مـــن صبـــا بـــردى أرق
ودمـــع لا يكفكـــف يـــا دمشـــق

ومعـــذرة اليـــراعـــة والقـــوافـــي
جـــلال الـــرزء عـــن وصـــف يـــدق

وفيها يقول:

ربـــاع الخلـــد ويحـــك مـــا دهـــاهـــا
أحـــــق أنهـــــا درســـــت أحـــــق
وهـــل عـــرف الجنـــان منضـــدات
وهـــل لنعيمهـــن كـــأمـــس نســـق
إذ رُمـــن الســـلامـــة مـــن طـــريـــق
أتـــت مـــن دونـــه للمـــوت طـــرق
بليـــل للقـــذائـــف والمنـــايـــا
وراء سمـــائـــه خطـــف، وصعـــق
إذا عصـــف الحـــديـــد أحمـــر أفـــق
علـــى جنبـــاتـــه، وأســـود أفـــق

واستمر محذراً أبناء سورية مغبَّة الانخداع قائلاً:

بنـــي ســـوريـــة اطـــرحـــوا الأمـــانـــي
وألقـــوا عنكـــم الأحـــلام ألقـــوا
فمـــن خـــدع السيـــاســـة أن تغـــروا
بـــألقـــاب الإمـــارة وهـــي رق

ومع ذلك لم يحطم شوقي قيثاره لشدة حزنه بعد تلك المشاركة الرائعة التي حفظتها الأجيال العربية، بل عزف

عليه لحناً آخر، غنى فيه دمشق الحزينة وتتبع فيه خطى أبي البقاء الرندي في قصيدته (لكل شيء إذا ما تم نقصان)، فقال في حفلة تكريمه بالمجمع اللغوي «الدمشقي» من قصيدة عنوانها دمشق:

قم ناج جلق، وانشد رسم من بانوا
مشت على الرسم أحداث وأزمان

وفيها تطرق إلى التاريخ الإسلامي القديم قائلاً:

بنو أمية للأنباء ما فتحوا
وللأحاديث ما شادوا، وما دانوا
كانوا ملوكاً سرير الشرق تحتهم
فهل سألت سرير الغرب ما كانوا

ويصل انفعاله الحزين إلى ذروته حينما يمر بالمسجد الأموي فيخاطبه قائلاً:

مررت بالمسجد المحزون أسأله
هل بالمصلى أو المحراب مروان
تغير المسجد المحزون واختلفت
على المنابر أحرار وعبدان
فلا الأذان أذان في منابره
إذا تعالى ولا الآذان آذان

وكأن شوقي يريد من خلال مناجاته للتاريخ القديم إدانة الحاضر الأليم.

والحق يقال: أن شوقي بهذه المراثي حلَّق في سماء الشعر عالياً حتى بلغ السها، فلم يتطاول إلى منزلته شاعر في العصر الحديث، مهما بلغت شاعريته، كما أنه استطاع أن يقف من الشعراء الأقدمين موقف الند للند، إن لم نقل: إنه تجاوزهم وتركهم بعيداً.

يقول «أحمد قبش»: «على أن هناك نوعاً من الوصف لم يقل فيه شاعرنا روعة عن كبار المتقدمين، وهذا النوع هو وصف المدن المنكوبة ورثاء اطلالها)[1].

ومن ناحية البطولات العربية، فقد تغنى شوقي بأبطال العروبة الذين جاهدوا المستعمرين خير جهاد، ودفعوا راحتهم ودمهم ومهجهم ثمناً لحرية أوطانهم، ألم يقل:

وللحـــريـــة الحمـــراء بـــاب

بكـــل يـــد مضـــرجـــة يـــدق

فقال فيهم أسمى قصائد المديح، ورفعهم فوق الرؤوس عالياً، وتوَّج رؤوسهم بتاجٍ. جواهره ويواقيته الكلمات التي ترقص فرحاً.

كما رثى شوقي هؤلاء الزعماء، حينما ماتوا حتف أنوفهم أو على يد أعداء الشعوب، ومصاصي الدماء.

---

(1) تاريخ الشعر العربي، ص77.

وتعرَّض لهذه البطولات لكي يوضح للناس سبب الرثاء والبكاء.

وتمثل واضحاً في رثائه لعمر المختار ومصطفى كامل، ومحمد فريد، وعشرات غيرهم من الزعماء العرب، وهو في هذا ينطلق من احساس صادق بالعروبة وليس بالإسلام فقط «لأنه أشاد بأبطال عرب غير مسلمين ايضاً.

كذلك لم يمجّد شوقي بطولات الصحابة والخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين والعثمانيين على أساس قومي، وذلك لأن الدافع إلى جهادهم دافع إسلامي حطَّم قيود القومية العربية الضيقة إلى أخوة أسمى هي: الأخوة في الإسلام.

وليس هناك مجال لاتهامه في إسلامياته حينما يقصر شعره أحياناً على نطاق عربي، بل إن ذلك يؤكد تلك العاطفة الدينية، وتلك الوطنية بأنها شاملة للعرب والمسلمين، فهو وإن تكلم عن العرب فقط، (فمن أجل أن يفسح لنفسه المجال في إجلال وتكريم من حرَّموا العروبة من غير «المسلمين»، والمعروف عنه أن شعره يتناول الدين الاسلامي ويتّسع لسائر الأديان في تسامح كبير)[1]، كما يقول د. حنا الفاخوري.

(1) تاريخ الأدب العربي، ص971.

ثم ان شوقي تكلم عن نابليون وشكسبير وهوجو من غير بني جنسه، ولا من بني قومه، ومع ذلك لم يؤاخذه أحد، فكيف يتهم حينما نجد في شعره وطنية عربية.

لقد تطرَّقت لهذه الفكرة رغم أن فيها خروجاً على الموضوع، لأن شوقي لم يسلم من ألسنة الحاسدين الذين اتهموه في عروبته، وإسلامه بسبب شعره الذي قاله في أبطال عرب غير مسلمين.

ويتجلى ذلك الاتجاه العربي في قصيدته في رثاء عمر المختار، فلقد رأى فيه شوقي بطلاً قومياً عظيماً، ناوأ المستعمرين، وكافحهم في كل شبر من بلاده، وهو شيخ طاعن في السن بلغ الثمانين من عمره، حتى سقط ذات يوم أسيراً، ولكن روحه ظلت طليقة فلم تُؤسر، ولما رأى المستعمرون الإيطاليون إصراره، وشدة شكيمته حاكموه محاكمة سريعة، وأعدموه شنقاً، وقيل: إنه ألقي حياً من الطائرة وليس المهم معرفة كيفية مماته، ولكن المهم أنه قتل شهيداً، فهو في نظر شوقي جدير بالرثاء، وجدير بأن تسجل مآثره بأروع القصائد، وأن تمجّد بطولاته فتكتب في جبين التاريخ بمداد من نور، فقال:

ركـزوا رفـاتـك فـي الـرمـال لـواء

يستنهـض الـوادي صبـاح مسـاء

وفيها يقول:

فـــي ذمـــة الله الكـــريـــم وحفظـــه
جسّـــد ببـــرقـــة وســـد الصحـــراء
بطـل البـداوة لـم يكـن يغـزو علـى
تنـك ولـم يـك يـركـب الأجـواء
لكـن أخـو خيـل حمـى صهـواتهـا
وأدار مـــن أعـــرافهـــا الهيجـــاء

ويقول مصوراً محاكمة الإيطاليين له:

دفعـوا إلـى الجـلاد أغلـب مـاجـد
يـأسـوا الجـراح، ويطلـق الأسـراء
وتخيـــروا الحبـــل المهيـــن منيـــة
لليـث يلفـظ حـولـه الحـوبـاء

وقد تحدث فيها عن شجاعة العرب قائلاً:

فتحـوا الشمـال سهـولـه وجبـالـه
وتـوغلـوا فـاستعمـروا الخضـراء
وبنـوا حضـارتهـم فطـاول ركنهـا
دار الســـلام، وجلـــق الشمـــاء

كما تكلم عن هذه البطولات في رثائه لمصطفى كامل، ومحمد فريد، وفي قصيدته ذكرى استقلال سورية،

وقصيدته الحرية الحمراء التي نظمها احتفالاً بذكرى (13) نوفمبر قائلاً:

يـوم البطـولـة لـو شهـدت نهـاره
لنظمـت لـلأجيـال مـا لـم ينظـم
دعـت البـلاد إلـى الغمـار فغـامـرت
وطنيـــة بمثقـــف ومعلـــم
ثارت على الحامي العتيد وأقسمت
بسـواه جـلَّ جـلالـه لا تحتمـي
لـم يحجمـوا فـي سـاعـة قـد أظفـرت
ملـك البحـار بكـل قيصـر محجـم
وتقـدمـوا حتـى إذا مـا بلغـوا
أوحـوا إلـى مصـر الفتـاه تقـدمـي

لقد كان شعر شوقي صدى للبطولات العربية ورجعاً لها، حيث مجَّدها في شعره الخالد فبقيت حيَّة في قلوب الأحفاد تنير لهم الطريق، وتدفعهم الى مزيد من التضحيات التي بدأها آباؤهم لكي يحققوا لأمتهم مجداً راسخ الأوتاد.

كذلك فما من قصيـدة نظمها شوقي في زعيم وطني إلاَّ كـانت حافلة بأمجاد البطولة العربية، التي يصعب عدها، فهي أكثر من أن تحصى، وما أخذ منها كان القليل فقط من أجل الدلالة على صدق الإحساس، والتوجه الوطني والديني.

لـــقد بقي أبطال العروبة أحياء بذكراهم في قلب شوقي، ومارثاؤه لهم إلاَّ إيماناً منه بقيمتهم في حياتهم، وبعد الممات.

كما أنه رأى في المسلم منهم معنى أشمل يتجاوز المضمون العربي إلى المضمون الإسلامي الأوسع، وأكد ذلك في إشارته إلى الـــبطولات التي قام بها العرب انطلاقاً من انتمائهم الديني لا القومي .

* * *

جهاد الاستعمار

الحثّ على جهاد المستعمرين، يعتبر حلقة مكملة لما سبق، إذ أن شوقي لم يعقد له فصلاً خاصاً به، وإنما جاءت أبياته التي تحمل تلك المعاني منثورةً في قصائده التي نظمها في رثاء الأبطال، والممالك الزائلة، وهو ما يتضح في رثائه دمشق، وذلك لأن شوقي وجد في المستعمر مرضاً يفتك بجسم الوحدة العربية، وكما يحسم الداء بالدواء، كان لا بد من درء المرض الخبيث بالثورة وإعلان الجهاد على أعداء الوطن ومصاصي الدماء من المستعمرين الغرباء، ومقابلة قوتهم بالقوة، وعنفهم بالعنف، أما الاستكانة والذل والاستعطاف، فلم تفعل شيئاً إلاّ إطالة أمد الاستعمار.

لهذا وجد شوقي لزاماً عليه أن يحث أبناء أمته العربية والإسلامية على الجهاد، فمن قبلهم جاهد الرسول(ﷺ)، وجاهد الصحابة والخلفاء، والزعماء الوطنيون، وجاء دور الأحياء، لأن الاستعمار لم يمت حتى الآن، بل يحاول أن يعود، ويتّبع لذلك مختلف الطرق التي توصله إلى الهدف المنشود، ولهذا انتهز كل سانحة تمر ليدعوا فيها إلى هذا المبدأ السامي، والاتجاه النبيل، وأكثر منها كثرة تدل على

صدق انتمائه، وإخلاصه في وطنيته التي تبرز قوية متدفّقة في كل لفظ وتتمثل حيَّة في كل معنى. وتكاد هذه الومضات المضيئة لو تم استخلاصها من ديوانه أن تكون غرضاً مستقلاً يؤكد تعدد أساليب التعبير الوطني عند شوقي.

وكثيراً ما يدعو شوقي إلى «الجهاد» بعد أن يتحدث عن مصيبة ما، وكأنه يقول للأجيال لا يرفع المصيبة، ويزيل آثارها إلاَّ ثورتكم وجهادكم وكفاحكم، كما في قوله من قصيدة نكبة دمشق:

بني سورية اطرحوا الأماني
وألقوا عنكم الأحلام ألقوا
فمن خدع السياسة أن تغروا
بألقاب الإمارة وهي رقُّ

فهو يكشف وسائل الاستعمار التي يتبعها للبقاء في البلاد بتفريق كلمة أهلها حيث يدعو إلى محاربتها فيقول:

وقفتم بين موت أو حياة
فإن رمتم نعيم الدهر فاشقوا
وللأوطان في دم كل حر
يد سلفت، ودين مستحق
ومن يسقى ويشرب بالمنايا
إذا الأحرار لم يسقوا، ويسقوا

ولا يبنى الممالك كالضحايا
ولا يدني الحقوق ولا يحق
ففي القتلى لأجيال حياة
وفي الأسرى فدى لهم، وعتق
وللحرية الحمراء باب
بكل يد مضرجة يدق

وتمر ذكرى استقلال سورية فيقول مخاطباً الشعب السوري من قصيدة بعنوان استقلال سوريا:

دعوا في الناس مفتوناً جباناً
يقول الحرب قد كانت وبالا
أيطلب حقكم بالروح قوم
فتسمع قائلاً ركبوا الضلالا؟

إن دعوة شوقي للجهاد تعتمد على الأسلوب الاستفهامي الإنكاري لأنه يستهجن الركود، ويستنكر الذل والخضوع، ثم تتجه لتذكير الأمة بشهادة الشجعان، وأن على الأبناء أن يسيروا على الدرب التي ساروا عليها فيقول:

سأذكر ما حييت جدار قبر
بظاهر جلق ركب الرمالا
مقيم ما أقامت ميلسون
يذكر مصرع الأسد الشبالا

ويقصد بذلك البطل يوسف العظمة شهيد معركة ميسلون عام (1920م).

وفي قصيدته التي رثى فيها عمر المختار يقول مخاطباً الشعب الليبي:

يـا أيهـا الشعـب الكـريـم أسـامـع
فـأصـوغ فـي عمـر الشهيـد رثـاء
أم ألجمـت فـاك الخطـوب وحـرمـت
أذنيـك حيـن تخـاطـب الإصغـاء
ذهـب الـزعيـم، وأنـت بـاقٍ خـالـد
فـانقـد رجـالـك، واختـر الـزعمـاء
وأرح شيـوخـك مـن تكـاليـف الـوغـى
واحمـل علـى فتيـانـك الأعبـاء

وربما كان شوقي يهدف من حرصه على رثاء كل زعيم وطني أن يتخذ منه نبراساً يذكر به أبناء أمته لعلهم يسيرون على خطاه، ومن هنا جاءت مراثيه للأبطال دعوة إلى جهاد المستعمرين أكثر منها بكاءً على أبطال لقوا وجه ربهم بعد أن أدوا رسالتهم.

هذا هو «شوقي» المجاهد رحمه الله، لقد دفع الثمن غالياً إذ رأى الإنجليز فيه خطراً عليهم حينما قال: (**إن الرواية لم تتم فصولاً**) ففضح خطرهم، وأساليبهم فنفوه إلى

الأندلس، ظناً منهم أن ذلك يقتل الوطنية في نفسه، ولكن المنفي صهرها وزادها اشتعالاً لتعود بعده أقوى وأشد إواراً. فجاءت كلماته تقطر دماً، وتحولت إلى رصاصات استقرَّت في قلوب الأعداء.

لهذا كان شعر شوقي على المستعمرين أشد من وقع السهام، لأنه نبّه أجيالاً نائمة تلتحف رداء الجهل والكسل والخمول، فهبَّت وتسلَّحت بشعره الذي يفيض ماسة، كما تسلَّحت من قبل بإيمانها وأصبحت قادرة على هزيمة المستعمرين، وطردهم نهائياً.

* * *

الدعوة إلى الوحدة

1 ـ الوحدة الاسلامية:

وهي أهم وأعم الأغراض الشعرية جميعها، إذ أنها تتجاوز حدود العنصريات الضيقة، والعصبيات الممقوتة القائمة على القرابة والنسب إلى ما هو أسمى من ذلك وهو الشعور الديني الذي يجعله يهتم بكل حدث إسلامي أياً كانت أرضه.

إن شوقي شاعر إسلامي يحس بما يحس به المسلمون، ويشعر بما يشعرون به من آلام وآمال، يفرح لهم إن انتصروا، ويحزن لهم إن أصيبوا وهزموا، فنظم أجمل قصائده في مدح النبي(ﷺ) والصحابة والقادة المسلمين، كما بكى عندما وقف على آثار المسلمين في الأندلس، أو عندما يموت زعيم من الزعماء.

وقد نظر شوقي إلى واقع المسلمين اليوم، فوجدهم مفرّقين ممزقين، تفصل بينهم إحن وثارات حدثت بسبب بعدهم عن المنبع الذي ينهلون منه، وهو «الدين» حتى استبد بهم عدوهم فسيطر عليهم بعد أن كانوا يسيطرون

عليه، ورأى أنه ما من علاج ناجح إلاَّ الوحدة، فجعل من نفسه داعياً لها ومن شعره أداة نداء.

وتتضح لنا دعواته المتكررة إلى الوحدة الاسلامية في قصائده التي مدح فيها الرسول(ﷺ)، شارحاً له أسباب تفرق المسلمين، ومن ذلك قوله في قصيدته ذكرى المولد:

سألت الله في أبناء ديني
فإن تكن الوسيلة لي أجابا
وما للمسلمين سواك حصن
إذا ما الضر مسَّهم، ونابا
كأن النحس حين جرى عليهم
أطار بكل مملكة غرابا
ولو حفظوا سبيلك كان نوراً
وكان من النحوس لهم حجابا

وقوله في قصيدته عرفات:

فقل لرسول الله يا خير مرسل
أبثك ما تدري من الحسرات
شعوبك في شرق البلاد، وغربها
كأصحاب كهف في عميق سبات
بإيمانهم نوران: ذكر، وسنة
فما بالهم في حالك الظلمات

وذلك ماضي مجدهم وفخارهم
فما ضرّهم لو يعملون لآتي

وقوله في قصيدته نهج البردة:

يا رب هبت شعوب من منيتها
واستيقظت أمم من رقدة العدم
سعد ونحس، وملك أنت مالكه
تديل من نعم فيه، ومن نِقم
رأى قضاؤك فينا رأي حكمته
أكرم بوجهك من قاضٍ، ومنتقم
فالطف لأجل رسول العالمين بنا
ولا تسم قومه خسفاً، ولا تسم
يا رب أحسنت بدء المسلمين به
فتمم الفضل، وامنح حسن مختتم

فشوقي يسلك طريقاً غير مباشرة، ولكنها أجدى إذ يناجي الرسول(ﷺ)، ويشرح له حال المسلمين، ويجأر بالدعوى إلى الله سبحانه وتعالى بأن يوحّد بينهم، ويجمع شملهم كما جمعه أولاً.

ولأن أهم أسباب تفرّق المسلمين تخلّيهم عن دينهم، فهو هنا يدعوهم عن طريق النداء غير المباشر للرجوع إليه بعد طول فراق، وإلى الوحدة بعد طول شقاق.

ويتجلى ذلك حينما انتصر الأتراك في الحرب على أعدائهم، فصوَّر فرح المسلمين كلهم لأنهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، فقال من قصيدة (انتصار الاتراك):

هـزَّت دمشـق بنـي أيـوب فـانتبهـوا
يهنئـون بنـي حمـدان فـي حلـب
ومسلمـو الهنـد والهنـدوس في جـدل
ومسلمـو مصـر والأقبـاط فـي طـرب
ممـالـك ضمهـا الإسـلام فـي رحـم
وشيجـة وحـواهـا الشـرق فـي نسـب

وحينما تم الغاء الخلافة العثمانية عام (1923م) قال مصوراً حزن الأقطار الاسلامية:

الهنـد والهـة ومصـر حـزينـة
تبكـي عليـك مـدامـع سمـاح
والشـم تسـأل والعـراق وفـارس
أمحـا مـن الأرض الخـلافـة مـاح

فلماذا فرح المسلمون جميعاً وحزنوا، ذلك لأنهم أمة واحدة يشعر أولها بما يشعر به آخرها، ويحس آخرها بما يحسّ به أولها.

لم يفرح البعض، ويحزن البعض، بل كان شعورهم

واحداً، فلماذا التناحر والشقاق.

إن شوقي يؤكد لنا على وحدة الأمة الاسلامية في جميع توجهاتها، من أجل أن يدعو الجيل المسلم إلى الاتحاد في وجه المؤامرات التي تحاول هدّ كيانه، وجعله لقمة سائغة في أيدي أعدائه أياً كان موطنه في مصر أو الشام أو الهند أو تركيا.

2ـ الوحدة العربية:

تجسَّدت هذه الوحدة العربية في قصائد شوقي المؤلمة، بوجه خاص، التي قالها في رثاء الزعماء الوطنيين، أو قالها في النكبات التي حلَّت بالبلاد العربية، يخاطب فيها العرب وحدهم، لأن الأمر يهمهم، ويعنيهم أياً كانوا مسلمين أو مسيحيين،فدعاهم إلى الوحدة في وجه المستعمر، والثورة في وجهه، وعدم الانخداع بوعوده التي لها في الظاهر حلاوة الشهد، وفي الباطن طعمها مر وعلقم، ولذا قال في قصيدته نكبة دمشق:

بني سورية اطرحوا الأماني
وألقوا عنكم الأحلام ألقوا
فمن خدع السياسة أن تغروا
بألقاب الإمارة وهي رق

ويقول:

نصحـــت ونحـــن مختلفـــون داراً
ولكـــن كلنـــا فـــي الهـــم شـــرق

ويقول:

ويجمعنـــا إذا اختلفـــت بـــلاد
بيـــان غيـــر مختلـــف ونطـــق
نصـــرتـــم يـــوم محنتـــه آخـــاكـــم
وكـــل أخ بنصـــر أخيـــه حـــق

هل هناك دليل على الوحدة أسمى من هذا التعبير الوجداني الرائع، إنه ينصح بالوحدة لأنه عربي الدم واللسان، ويريد أن ينصر قوماً نصروه فيما مضى، تتجاوز عروبته حدود وطنه (مصر) إلى ما هو أعم وأشمل، ويؤكد ذلك في قصيدة (استقلال سوريا) قائلاً:

بنـــي ســـوريـــة التئمـــوا كيـــوم
خـــرجتـــم تطلبـــون بـــه النّـــزالا
سلـــوا الحـــريـــة الـــزهـــراء عنـــا
وعنكـــم هـــل أذاقتنـــا الـــوصـــالا
وهـــل نلنـــا بهـــذا اليـــوم إلاّ
عـــواقيـــب المـــواعـــد والمطـــالا

فهو يذكرهم بمواقفهم السابقة التي ما زالت حية في ضمائرهم، فيوقظها من نومها، لتتحد في وجه المستعمر،

كما يذكرهم محذراً من الانخداع والتفرق وأنهم لم يحصلوا منه على طائل فلا أمل إلاَّ في الوحدة. والوحدة فقط.

ثم يتأجج عنه الشعور القوى بالوحدة، وإنها فوق الاعتبارات الشخصية والذاتية، فيقول في قصيدة دمشق)

الملك أن تتلاقوا في هوى وطن
تفرقت فيه أجناس وأديان

ويعبّر عن صدق عاطفته الوحدوية:

نصيحة ملؤها الإخلاص صادقة
والنصح خالصه دين وإيمان
والشعر ما لم يكن ذكرى وعاطفة
أو حكمة فهو تقطيع وأوزان
ونحن في الشرق والفصحى بنو رحم
ونحن في الجرح، والآلام إخوان

فلتقرأ الأجيال شعر شوقي، فما هو إلاَّ نبراس يضيء الطريق لمن تاهوا وضاعوا في هذه الحياة فوهنوا، أو تغلبت لديهم المصالح اشخصية على الأهداف السامية للأمة.

ويتأكد هذا الانتماء عند شوقي في قصيدته نكبة بيروت التي قالها عندما ضرب الأسطول الإيطالي تلك المدينة الحالمة، حيث يقول:

بيـروت مـات الأسـد حتـف أنـوفهـم
لـم يشهـروا سيفـاً ، ولـم يحمـوك
مـا كنـت يـومـاً للقنـابـل مـوضعـاً
لـو أنهـا مـن عسجـد مسبـوك
إن يجهلـوك فـإن أمـك سـوريـا
والأبلـق الفـرد الأشـم أبـوك
سلمـت دمـاء فيـك حـول مسـاجـد
وكنـائـس ومـدارس وبنـوك
لـك فـي ربـى النيـل المبـارك جيـرة
لـو يقـدرون بـدمعهـم غسلـوك

3ـ الوحدة المصرية:

وقد قصرها شوقي على أبناء الشعب المصري وحده دون سواهم، والانتماء فيها لا يعتريه تساؤل في صفائه، وإن اعتراه بعض الضعف بسبب علاقته بالقصر، وهذا أكبر رد على ادعاءات من اتهموا شوقي في وطنيته، وأن مصر التي ينظم في تاريخها هي مصر الأسر المالكة والعروش الحاكمة وليست بمصر الشعب والسلالات الوطنية)[1]، كما قال العقاد.

إن جميع القصائد التي غنى بها شوقي وطنه تفيض

(1) شعراء مصر وبيئاتهم، ص185.

بمشاعر الصدق والإخلاص، مليئة بالمعاني الوطنية من فرح وحزن ودعوة الى الاتحاد.

إلاَّ أنه يجب التركيز على نقطة هامة في هذه الدعوة وهي أنه يعيش في مصر أمتان، إحداهما مسلمة، والأخرى مسيحية قبطية، وكم حاول دعاة الشر والتفريق أن يوقعوا بينهما حباً بتمزيق إهاب الوحدة.

ولكن شوقي انتبه لمحاولات أعداء الشعب، ودعاه إلى الاتحاد في وجه المؤامرات والدسائس التي تستهدف كيانه ووحدته، ويتضح ذلك بوجه خاص في قصيدته التي قالها حينما صرع «بطرس غالي» على يد ابراهيم الورداني في عام(1910م) حيث قال: موجهاً كلامه إلى «الأقباط» حفاظاً على الوحدة الوطنية من قصيدة بعنوان (مصرع بطرس غالي):

بني القبط إخوان الدهور رويدكم
هبوه سوعاً في البرية ثانياً
تعالوا عسى نطوي الجفاء، وعهده
وننبذ أسباب الشقاق نواحيا
وما زال منكم أهل ود ورحمة
وفي المسلمين الخير ما زال باقيا

فهو يدعو إلى الوحدة الوطنية بين المسلمين والأقباط،

لأنهم يعيشون التمزق بسبب هذه الحادثة، ولهذا خرج عن دائرة التعصب الطائفي، مع كونه مسلماً إلى هدف أسمى وأنبل منه، هو الحفاظ على الوحدة والاجتماع بين سكان الوطن الواحد أياً كانت ديانتهم، وأياً كانت جنسيتهم ودماؤهم، (ولا شك أن هذه الشوقية غير المعروفة أعظم الأعمال الوطنية في تاريخ مصر الحديث)[1].

كما نجد دعوته للوحدة الوطنية في قصيدته بمناسبة مشروع (28) فبراير:

ضمـوا الجهـود وخلـوهـا مفكـرة
لا تملؤوا الشرق من تعريفها عجبا
أفي الوغى، ورحى الهيجاء دائرة
تحصون من مات أو تحصون ما سلبا.!

إذ ينكر على قومه التباهي والتفاخر بالماضي، ووقوفهم عند أفعال الماضين، في حين أنهم يهملون ما هو أسمى وأجل وهو الوحدة.

والحقيقة أنه لا تكاد تخلو قصيدة من قصائد شوقي في مصر من دعوة إلى الوحدة الوطنية بين المصريين، فهو المصري مولداً ومنشأً، فرضع حب مصر صغيراً ولم يفقده كبيراً، تربى على ترابها، وتحت سمائها.. فلا غرابة أن

(1) ملوك وصعاليك، ص55.

يعبّر عنها، ويؤكد عليها إنطلاقاً من حرصه على أن يرى مصر وحدة متكاملة، تعمل وتشق طريقها بين الأمم إلى مستوى أفضل، وأن يشارك أبناء وطنه في تلك المسيرة فيجعل من نفسه واعظاً يدلهم على طرق الخير.

* * *

شوقي المرِح

بكى شوقي أمه ورثاها لأنه يعيش حالة الحزن، ونادى مصر وتشوّق اليها لأنه يعيش حالة الحنين .

ولكن: ألم يضحك، ألم يمزح ويبتسم ليقضي على الملل الذي قد يعتري الانسان بين حين وآخر؟ .

نعم لقد ضحك شوقي، وابتسم ليقضي على القلق الذي يدمر سعادة الإنسان خاصة إذا كان مرهف الإحساس. هنا اكتملت فيه صفات الشاعر السوي الضاحك الباكي المتشوق، فكيف كان مرحه،ومع من كان؟

إن ذلك يستطلب الرجوع لديوانه، والاطلاع على هذا الاتجاه لديه من خلال الفصل الخاص بمداعباته كما وردت بهذا النص.

ولا بد من حصر هذه المداعبات، وهو ما لم يحصل بالنسبة لبقية الأغراض الأخرى وليس ذلك يعني أن شوقي شاعر انطوائي؛ بل للتأكيد على أن ما كتب عنه في مداعباته فيه رمز إلى أنه كان ضحوكاً بشوشاً يفرح بالحياة .

كانت مداعبات شوقي مع أبنائه : أمينة وحسين وعلي ، ومع بعض أصدقائه، وخاصة محجوب ثابت ، وقد عقد

لمداعباته معه فصلاً بعنوان «محجوبيات» وذلك في الجزء الرابع من ديوانه.

وهذه المداعبات تتصف بالمرح والشفقة والحنان حيناً كما هو شأنه مع أطفاله، وبالهزل والسخرية المقبولة حيناً آخر لتحقق فيها صفة الضحك منها والإنس بها، وهذا ما يبدو بشكل خاص في مداعباته مع الشيخ محجوب ، وفي بعض القصائد ذات الطابع القصصي الساخر.

يقول حسين شوقي: (ظفر محجوب من أبي بمقدار من الشعر قاله فيه لم يظفر به صديق آخر)[1].

ومن ذلك قول شوقي:

بـــراغيـــث محجـــوب لـــم أنسهـــا
ولـــم أنـــس مـــا طعمـــت مـــن دمـــي
تشـــق خـــراطيمهـــا جـــوربـــي
وتنفـــذ فـــي اللحـــم والأعظـــم
وكنت إذا الصيف راح احتجمت
فـــجـــاءَ الخـــريف فلـــم أحجـــم

ويقـــول: (أنظـــر إليه في تلك المداعبة اللطيفـــة فمـــا تملك أن تحس أنك تعيش مرح أبي دلامة، وظرف أشعب، أو ابن الرومي، أحياناً، وتتخيل من خلالها روح شوقي المرحة الضاحكة، ولكن محجوب يغضب ويثور زاعماً أنه

(1) أبي شوقي ص128.

سوف يقضي على سمعة عيادته، ولكنه يعود إلى الهدوء بعد أن يرفأن نفاره)[1].

وأحياناً نجد شوقي ينحى منحى ابن الرومي في تتبع سقطات الناس ليهجوهم بها، ولنقرأ قول ابن الرومي:

يقتـــر عيســـى علـــى نفســـه
وليـــس بباقٍ ولا خـــالـــد
ولـــــو يستطيـــــع لتقتيـــــره
تنفـــس مـــن منخـــرٍ واحـــد

وقوله في أحدب:

قصـرت أخـادعـه، وطـال قـذالـه
فكـــأنـــه متـــربّـــص أن يصفعـــا
وكـــأنمـــا صفعـــت قفـــاه مـــرة
وأحـــس ثـــانيـــة لهـــا فتجمعـــا

إذ يتبع شوقي خطاه فيبحث عن صفات محجوب فيجده مشهوراً بالتقتير، ولهذا تناوله من هذه الناحية إذ كان عند «محجوب» حصان يسمى «مكسوني» لفرط هزاله، وهو اسم بطل إرلندي مات جوعاً، فقال شوقي:

ولا والله مـــا كلفـــت محجـــوبـــاً، ولا يـــاره
فـــلا البـــرسيـــم تـــدريـــه

(1) أبي شوقي، ص128.

ولا تعـــــــرف نـــــــواره
وقـــد تـــروى عـــى صلـــت
إذا نـــــادمـــــت سمـــــاره

إنه شوقي أشبه برسام ساخر، إلاَّ أنه يستعمل اللفظ والكلمة بدلاً من اللون والريشة، فتميزت هذه المداعبات المضحكة بسهولة العبارة وسلاستها، وهذا من سمات فن المداعبة البريئة.

ويقول أيضاً في «مكسويني»:

تفـديـك يـا مكـس الجيـاد الصـلادم
وتفدي الأساة النطس من أنت خادم
كـأنـك إن حـاربـت فـوقـك عنتـر
وتحـت ابـن سينـا أنـت حيـن تسـالـم
ستجـري التمـاثيـل التـي ليـس مثلهـا
إذا جـاء يـوم فيـه تجـزى البهـائـم
فـإنـك شمـس والجيـاد كـواكـب
وإنـك دينـار، وهـن الـدراهـم

ولا تخفى ملاحة البيت الأخير حيث أخذ معناه من قول النابغة الذبياني مادحاً النعمان بن المنذر ملك الحيرة:

كـأنـك شمـس والملـوك كـواكـب
إذا طلعـت لـم يبـد منهـن كـوكـب

وفي موقف آخر يقول شوقي، مشيراً إلى محجوب، وقد أودع مبلغ الفي جنيه في البنك:

قل لابن سينا لا طبيب اليوم إلا الدرهم
هو قبل بقراط، وقبلك للجراحة مرهم

وابن سينا لقب المحجوب لأنه كان طبيباً.

وربما اتجه شوقي في مداعباته اتجاهاً آخر يجمع بين المرح وما هو أسمى منه، إنه الحنان الأبوي، وذلك حين يقول مهنئاً ابنته أمينة بسنتها الثانية:

أمينة يا بنتي الغالية
أهنيك في السنة الثانية
وأسأل أن تسلمي لي السنين
وأن ترزقي العقل، والعافية
وأن تقسمي لأبر الرجال
وأن تلدي الأنفس الغالية
أتدرين ما مرّ من حادث
وما كان في السنة الماضية
وكم قد خلت من أبيك الجيوب
وليست جيوبك بالخالية

ومن ذلك قوله أيضاً فيها، وكلب لها أسود:

يـــا حبـــذا أمينـــة وكلبهـــا
تحبـــه جـــداً كمـــا يحبهـــا
لكنهـــا بيضـــاء مثـــل العـــاج
وعبـــدهـــا أســـود كـــالـــدجـــاج

وفي شعره الذي نظمه على ألسنة الحيوانات أو بعض الحكايات وقصص الأمثال التي نظمها شعراً، تبرز هذه السمة «الدلامية» الضاحكة الساخرة أحياناً، فيما يعرض من أحداث في تسلسل شعري قصصي جميل يتسم بإشراق العبارة وخفتها على اللسان مما يناسب هـذا الاتجاه كقوله مثلاً :

يحكـــون أن رجـــلاً كـــرديـــاً
كـــان عظيـــم الجســـم همشـــريـــاً
وكـــان يلقـــي الـــرعـــب فـــي القلـــوب
بكثـــرة الســـلاح فـــي الجيـــوب
ويفـــزع اليهـــود، والنصـــارى
ويـــرعـــب الكبـــار، والصغـــارا
وكلمـــا مـــرَّ هنـــاك، وهنـــا
يصيـــح بـــالنـــاس أنـــا أنـــا أنـــا
نمـــى حـــديثـــه إلـــى صبـــي
صغيـــر جســـم بطـــل قـــوي

لا يعـــرف النـــاس لـــه الفتـــوة
وليـــس ممـــن يـــدعـــون القـــوة
فقـــال للقـــوم ســـأوريكـــم بـــه
فتعلمـــون صـــدقـــه، وكـــذبـــه
وســـار نحـــو الهمشـــري فـــي عجـــل
والنـــاس ممـــا سيكـــون فـــي وجـــل
ومـــدَّ نحـــوه يمينـــاً قـــاسيـــة
بضـــربـــة كـــادت تكـــون القـــاضيـــة
فلـــم يحـــرك ســـاكنـــاً، ولا ارتبـــك
ولا انتهـــى عـــن زعـــم، ولا تـــرك
بـــل قـــال للغـــالـــب قـــولاً لينـــاً
الآن صـــرنـــا اثنيـــن أنـــت، وأنـــا

فهذه حكاية شعرية تبعث على الأنس، وإن لم تصل حد الإغراق في الضحك، ولو أراد شوقي لجعلها صورة ضـاحكـة تمـامـاً، ولكنـه يخشـى أن يتضـاءل المعنـى الاجتماعي، إذ أنه يريد أن يقول للناس: إياكم والغرور.

هذا هو شوقي في مداعباته باختصار، إنها ومضات قليلة، وغيض من فيض من مداعبات زخرت بها حياة شوقي في جانبها المرح التي لم تسلم نفسها للحزن إلاَّ قليلاً.

ويدخل ضمن هذا المنهج الذي كان جزءاً مهماً من شعر شوقي قصائده التي نظمها على ألسنة الحيوانات والطيور،

وخصص لها جزءاً من ديوانه تحت عنوان «الحكايات»، وهي حكايات اعتمد شوقي على اقتباسها من مؤثرات متعددة، مثل كليلة ودمنة، أو بعض الأمثال، أو بعض مشاهد الحياة الاجتماعية بما فيها من تناقضات، متأثراً في أسلوبه الشعري بدراسته في فرنسا واطلاعه على الآثار الأدبية لكبار الأدباء هناك خاصة لافونتين وهوجو.

ويعتبر هذا المنهج جديداً في الأدب العربي، ورغم وجود مظاهر ضئيلة البريق عند من سبق شوقي مثل بشار بن برد في قصيدته:

صاحبي خذ لي أماناً
من أتان الأصبهاني

وإبان بن عبد الحميد، والشعراء الساسانيين، إلاَّ أن شوقي هو الشاعر المبدع الذي جعل من هذا الغرض فناً مستقلاً لفت أنظار النقَّاد إليه، وزاد من مكانته في مملكة الشعر العربي، ويكفي الدليل على ذلك أن عدد هذه الحكايات بلغ (55) خمساً وخمسين حكاية.

ويكفي للدلالة على روح شوقي المرحة المبتسمة أن اشتمل الجزء الرابع من ديوانه الشوقيات على:

- (55) مقطوعة في الخصوصيات.
- (10) مقطوعات للأطفال تحت عنوان ديوان الأطفال.
- (4) مقطوعات بعنوان محجوبيات.

* * * *

الشعر المسرحي

كتب شوقي ثماني مسرحيات هي: حسب ظهورها زمنياً[1]:

1 ـ مصرع كليوبترا:

وهي تتحدث عن الأيام الأخيرة لهذه الملكة التي تنتمي إلى أسرة البطالسة، وصراعها مع الرومان الذي انتهى بانتحارها حيث تغطي تلك المسرحية الأحداث في الفترة الزمنية الواقعة بين معركة أكتيوم البحرية، وانتحار الملكة، وتدور أحداثها في سنة 30ق. م. في مدينة الاسكندرية.

تتألف هذه المسرحية من أربعة فصول، ينقسم الفصل الأول منها إلى منظرين، في حين اقتصرت الفصول الثلاثة الأخيرة على منظر واحد.

2 ـ مجنون ليلى:

وزمن أحداث تلك المسرحية العصر الأموي، ومكانها بادية نجد، وتتألف من خمسة فصول، يحتوي الرابع منها على منظرين، في حين اقتصرت الفصول الأربعة الأخرى على منظر واحد.

---

(1) مقدمة، الأعمال الكاملة (المسرحيات)، ص7.

3 ـ قمبيز :

وهي تتحدث عن غزو هذا الملك الفارسي لمصر، وزمنها القرن السادس قبل الميلاد، ومكان أحداثها مصر، حينما كانت تحت حكم البطالسة، حيث هاجم قمبيز مصر وضمها إلى مملكته وأصبحت تابعة لعاصمته سوس، وتتكون من ثلاثة فصول، حيث يتكون الأول منها من ثلاثة مناظر، والثاني من منظر واحد، والثالث من منظرين.

4 ـ علي بك الكبير :

وهو زعيم المماليك في أواخر العصر العثماني، حيث تتحدث هذه المسرحية عن ثورته على العثمانيين واستقلاله بحكم مصر والشام، ونهايتها على يد قائد جيوشه محمد أبو الذهب، وزمنها سنة 1770م، ومكانها القسطاط والصالحية وعكا.، وتتكون المسرحية من ثلاثة فصول ومن منظر واحد.

وقد ذهب الدكتور عز الدين اسماعيل إلى القول: (بأن هذه هي أولى مسرحيات شوقي، وقد كتبها وهو ما يزال في بعثته، ويبدو أنها لم تلق القبول من الخديوي، وأنها مثل كثير من الأعمال الأولى لشوقي، كانت عملاً هزيلاً بدليل أنه أعاد كتابتها في آخر حياته)[1].

(1) مقدمة، الأعمال الكاملة (المسرحيات)، ص6.

5 ـ عنترة :

وموضوعها قصة الحب الخالد بين عنترة، وابنة عمه عبله، وزمنها منتصف القرن الأول قبل الهجرة، ومكانها بادية نجد في أحياء قبيلتي عبس وعامر وما بينهما، وتتكون المسرحية من أربعة فصول، حيث يتألف الفصل الأول من عشرين مشهداً، في حين يتألف الفصل الثاني من منظرين، يتكون الأول منها من مشهدين، والمنظر الثاني من أربعة عشر مشهداً، الأول منها عبارة عن بيت شعري واحد.

ويتألف الفصل الثالث من منظرين، الأول منهما يتكون من أربعة عشر مشهداً، والمنظر الثاني من مشهدين، ويتكون الفصل الرابع من مشهدين.

6 ـ أميرة الأندلس :

وزمن هذه المسرحية عصر ملوك الطوائف، وبالتحديد عصر المعتمد بن عباد ملك أشبيلية بين سنتي (461 ـ 484هـ)، ومكان الرواية مدينة أشبيلية، وسجن إغمات في مراكش بالمغرب الأقصى.

وهي تتحدث عن حياة هذا الملك الأندلسي داخل قصره وما فيها من بذخ ولهو وطرب، وصراع مع ملوك الطوائف الآخرين، واستعانته بملك المرابطين يوسف بن تاشفين، الأمر الذي انتهى به أخيراً إلى سجن إغمات.

وتتكون هذه المسرحية من خمسة فصول: يتألف الأول منها من ثلاثة مناظر، وتقتصر الفصول: الثاني والثالث والرابع على منظر واحد ثم يأتي الفصل الخامس مكوناً من ثلاثة مناظر.

وقد ذهب الدكتور شوقي ضيف الى القول: (أتم شوقي هذه المسرحية في الحقبة الأخيرة، ويقال انه بدأها في منفاه بالأندلس)[1].

ويضيف قائلاً: (ولا ندري السرّ في هذا التحول، فقد تكون حملات بعض النقّاد عليه، وأنه لا يحسن سوى الشعر الغنائي، السببَ الحقيقي في أنه عدل من الشعر إلى النثر في هذه المأساة، كأنه يريد أن يبرهن على ضلال أدلتهم)[2].

7ـ الست هدى:

وهي ملهاة اجتماعية مستمدة من واقع الحياة الاجتماعية في مصر، وتتحدث عن امرأة ثرية ذات شخصية قوية يطمع الرجال فيها، فلا يموت أحد أزواجها أو تطلقه إلاّ وتستقبل زوجاً، وزمنها سنة 1890م، ومكانها الحي الحنفي بالقاهرة.

(1) شوقي شاعر العصر الحديث، ص224.
(2) شوقي شاعر العصر الحديث، ص254.

وتتألف هذه المسرحية من ثلاثة فصول، وكل فصل يقتصر على منظر واحد.

8 ـ البخيلة:

وهي ملهاة اجتماعية استمد شوقي أحداثها من بدايات القرن العشرين، وبطلة هذه المسرحية امرأة برجوازية بخيلة تكتنز المال، وهي على النقيض من شخصية الست هدى بطلة المسرحية السابقة، وزمن الرواية عام (1907م) ومكانها القاهرة (حي لاظوغلي.)

وتتكون هذه المسرحية من ثلاثة فصول، حيث يقتصر كل من الفصول: الأول والثاني على منظر واحد. ليأتي الفصل الثالث مؤلفاً من منظرين.

ولم يرد عن هذه المسرحية أية إشارة في كتاب «شوقي شاعر العصر الحديث» لشوقي ضيف، الذي تكلَّم بتوسع عن مسرحيات شوقي، ويبدو أن أمر هذه المسرحية لم يكتشف إلاَّ مؤخراً، حيث أن تاريخ طباعة كتاب شوقي ضيف كان عام (1963م) في حين وردت مسرحية البخيلة من خلال إصدار الهيئة المصرية للكتاب لأعمال شوقي الكاملة عام (1984م).

ويبدو أن الدكتور فوزي عطوي حين أشار إلى مسرحيات شوقي اعتمد على كتاب الدكتور شوقي ضيف، ولذا لم يذكر هذه المسرحية من ضمن مسرحيات شوقي، رغم أن

كتابه «أحمد شوقي شاعر الوطنية والمسرح والتاريخ» لم يطبع إلاَّ سنة(1989)م[1].

هذه بإيجاز إشارة موجزة إلى مسرحيات شوقي من أجل تقريبها إلى ذهن القارىء، وليس القصد من وراء ذلك إعداد دراسة عميقة عن هذه المسرحيات، لأن الحديث عنها بإفاضة يستوجب الخروج بسفر ضخم عنها، ليس هذا مجاله، خاصة إذا عرفنا أن مسرحيات شوقي تقع في (789) صفحة.

لذا فإن الحديث في هذا الفصل يتجه لإبراز الخطوط العامة التي تلتقي عندها هذه المسرحيات، ودوافع تأليفها أياً كانت هذه الدوافع، سياسية أم اجتماعية أو وطنية أو دينية... الخ، وليس المراد الحديث عن كل مسرحية على حدة.

إن الملاحظ أن اهتمام شوقي بالمسرح كان في إطاره العام متأثراً تأثراً مباشراً باطلاعه على الآداب الغربية سواء عن طريق الدراسة أو الاطلاع والقراءة أو عن طريق الرحلات الصيفية، خاصة الأدب الفرنسي والانجليزي، كما هي الحال عند نظمه للشعر على ألسنة الحيوانات، حيث استقى هذه الفكرة من أشعار لافونتين، وهوجو

(1) أحمد شوقي شاعر الوطنية ص 45-46.

وسواهما، وهكذا كان في المسرح حيث تأثر بشكسبير وكورني وراسين.

ومما يؤكد هذه الفكرة أن شوقي كان مشغولاً بفكرة التأليف المسرحي منذ بواكير حياته، وإبان دراسته في فرنسا، حيث ذهب الدكتور عز الدين اسماعيل الى هذا الرأي عند الحديث عن مسرحية علي بك الكبير قائلاً: (ويبدو أنها لم تلق القبول من الخديوي، ولكن المؤكد أنها كانت مثل كثير من الأعمال الأولى عملاً هزيلاً بدليل أن شوقي نفسه قد عاد في أخريات حياته فأعاد كتابتها)[1].

وكما أشار إلى ذلك شوقي ضيف في مجال حديثه عن مسرحية الأندلس، قائلاً: (وقد أتمَّ شوقي هذه المسرحية في الحقبة الأخيرة من حياته، ويقال: إنه بدأها في منفاه بالأندلس)[2].

ورغم هذه البدايات، فإن العبرة باتجاه شوقي إلى هذا المجال اتجاهاً جدياً، وهو ما لم يتبلور ويتضح إلا قبل وفاته بخمس سنوات.

وقد اتحدت مع الظروف العامة التي رسخت في ذهنه بسبب اتصاله بالغربيين ظروف خاصة مرَّت به خلال حياته،

(1) مقدمة، الأعمال الكاملة (المسرحيات)، ص6.

(2) شوقي شاعر العصر الحديث، ص254.

سواء في حياته الأولى في قصور الخديوي أو منفاه للأندلس أو انصهاره في الحياة الوطنية والاجتماعية التي كان رائدها الشعب المصري بعد عودته.

لذا فإن شوقي حينما كتب مسرحياته اتجه في اختيار حوادثها من واقع التاريخ المصري القديم والوسيط والتاريخ العربي والاسلامي، ومن عمق الحياة الاجتماعية في عصره تحدده ثلاثة اتجاهات هي:

1 - **التاريخ المصري القديم** : ممثلاً في مسرحيتي مصرع كليوبترا، وقمبيز.

2 - **التاريخ العربي والإسلامي** : ممثلاً في مسرحيات ليلي والمجنون وأميرة الأندلس، وعلي بك الكبير.

3 - **الحياة الاجتماعية** : ممثلة في مسرحيات الست هدى والبخيلة وعنترة.

إنه مما يحمد لشوقي هو أنه اتجه في مسرحياته من حيث الحوادث اتجاهاً ينأى به عن محاكاة الغربيين، ويجعله من هذه الناحية شاعراً مصرياً أولاً، وعربياً ثانياً، وإسلامياً ثالثاً، ولم يكن للغربيين أي تأثير عليه، إلاَّ في مجالين فقط هما التأثير بالفكرة، وأسلوب البناء المسرحي.

على أنه تجب الإشارة إلى أن التأثر بالحياة الغربية ومحاولة محاكاتها ليس هو السبب الأول والأخير في اتجاه

شوقي إلى الشعر المسرحي، ولكن هناك عوامل عدة إضافة إلى السبب المشار إليه، ومن أهمها:

1 ـ الشعور السائد عند كثير من الناس بأن اللغة العربية لغة الشعر الغنائي وأنها عاجزة عن استيعاب الفن المسرحي، ولهذا جاء شوقي لينفي هذه التهمة وليؤكد أكثر على قدرة الحياة العربية عامة والمصرية خاصة فإنه جعل حوادث مسرحياته تدور في هذا الاطار فقط، كما يقول الدكتور فوزي عطوي[1].

2 ـ وجود محاولات مسرحية ضعيفة ذات لغة عامية ركيكة، وحوادث كلاسيكية أكثر ما تتجه إلى إضحاك الناس من دون أن تحمل بين سطورها أية أفكار جادة تحمل الناس على الاهتمام بهذا الفن الأدبي، ويتضح ذلك عند علي الكسار، وسلامة حجازي حيث كان المسرح عندهما مسرحاً غنائياً تلحينياً فقط، فكان ذلك دافعاً قوياً لدى شوقي لأن ينتج مسرحاً فعَّالاً في أسلوبه، وحوادثه وطريقة نظمه يضاهي بها ما لدى الغربيين، ويرفع من قيمته عند الناس، ويجعل المهتمين به متعلقين بالمثل العليا المستمدة من التاريخ أو الرواية التاريخية أو الحياة الاجتماعية.

3 ـ وجود مسرحيات ومحاولات جادة تتجاوز الإطار

(1) شوقي شاعر الوطنية، ص 45.

الغنائي الضاحك، ولكنها في حوادثها ما هي إلاَّ نسخ لأفكار غربية عن طريق الترجمة، وتقديمها باللغة العربية بعد تمصيرها، مما يجعل الخوف موجوداً من انسلاخ الانسان العربي من واقعه العربي والاسلامي في جميع اتجاهاته وانتمائه لحالة شاذة هي المجتمع الغربي بكافة أخطائه، كما حدث عند ترجمة كثير من المسرحيات الغربية، خاصة كوميديا «موليير» كما يذهب الى ذلك الدكتور عز الدين اسماعيل[1].

4 ـ شعور خفي عند شوقي بأنه قد ابتعد قبل نفيه الى الأندلس عن الشعب، وعن مشاركته الوجدانية له في حركاته الوطنية، ورغم أنه قد اتجه بعد عودته من المنفى بوجه خاص اتجاهاً ايجابياً في شعره، إلاَّ أنه لا يرى ذلك كافياً، نظراً لوجود من يماثله في ذلك الاتجاه، إن لم يتفوق عليه مثل حافظ ابراهيم أو اسماعيل صبري، ولهذا هداه فكره إلى الإتيان بجديد، فكان اتجاهه الجاد الى المسرح في السنوات الخمس الأخيرة من حياته مما قرَّبه إلى الناس أكثر.

ويذهب كثير من النقَّاد إلى التقليل من ظاهرة اتجاه شوقي إلى كتابة المسرحية في سنواته الأخيرة. لأن شوقي

(1) مقدمة الأعمال الكاملة (المسرحيات)، ص6.

قد استوفى حظه من نظم الشعر في إطاره المعروف، ووفق أغراضه المعروفة. ولذا اتجه إلى كتابة المسرحية، ومما يدل على ذلك هو أن مضمون مسرحيات شوقي لا يختلف اختلافاً جوهرياً عن مضمون شعره الذي سجَّله في ديوانه الشوقيات

ويرى هؤلاء النقَّاد أن مسرحيات شوقي: قمبيز، ومصرع كليوبترا، وعلي بك الكبير، وأميرة الأندلس ذات اتصال وثيق بحياة الملوك والأمراء في قصورهم، تلك الحياة التي نهل شوقي من ينابيعها قبل ذهابه للدراسة في فرنسا، في حين أن مسرحيتي شوقي: مجنون ليلى، وعنترة تتصلان اتصالاً وثيقاً بقصائد شوقي الغزلية.

كما أن مسرحيتي: الست هدى، والبخيلة، تتصلان بالحياة الاجتماعية الواقعية للشعب، مما يؤكد تحول شوقي عن حياته المترفة الناعمة التي عاشها في قصور الخديوي توفيق الى مشاركة فعَّالة للشعب في همومه ومشكلاته، بل لعلَّ ذلك هو السبب، فالموقف يتطلبه وذلك لأنه يريد أن تعبر هذه المواقف عن روح الشعب المصري الذي كان يرى أن الضحك والنكتة سلاح معتبر لديه في مواجهة المصائب والهموم، وأن شوقي من وراء ذلك أكَّد مرة أخرى اتصاله الوثيق بالشعب من خلال تقديره لدور الفكاهة في حياة مواطنيه.

لذا ذهب الدكتور عز الدين اسماعيل الى القول: (وهكذا تصبح هذه المسرحيات في هذا النسق معبِّرة عن مناحٍ ثلاثة هي: المنحى التاريخي، والمنحى الذاتي، والمنحى الاجتماعي، وهذه المناحي هي نفسها التي يعلن عنها حصاد شوقي الشعري)[1].

وقد أخذ شوقي عن المدرسة الفرنسية الكلاسيكية في الشرح أسلوبها في طريقة إعداد المسرحية، حيث كان يقسم المسرحية إلى فصول، وتنقسم الفصول إلى مناظر، أو مشاهد تقل وتكثر، حسب رؤية المؤلف، كما يسبق ذلك بمقدمة تصور الجو الاجتماعي للمسرحية من خلال الأشخاص ومهماتهم ونوعية الملابس. . .الخ، بل ربما كان هذا الاتباع للمدرسة الفرنسية هو الدافع الأول إلى اختبار مسرحياته الثلاث: قمبيز، ومصرع كليوبترا، وعلي بك الكبير، التي تنزع حوادثها الى تصوير الحياة الاستقراطية لدى الطبقة الحاكمة، ولا علاقة لها بالحياة الواقعية لدى عامة الشعب، وهو ما كان سائداً في المسرح الفرنسي آنذاك. بل يرى الدكتور شوقي ضيف: (أن هذا التأثر قد وصل بشوقي الى اتباع الكلاسيكية الفرنسية في خلو مسرحياته الثلاث من تمثيل الحوادث على المسرح

(1) مقدمة الأعمال الكاملة (المسرحيات)، ص9.

والاكتفاء بمعرفة ذلك من خلال حوار الممثلين)[1]، كما أنه جارى تلك المدرسة في التقيد في بعض مسرحياته بنظرية الوحدات الثلاث وهي:

أ ـ وحدة الزمان.

ب ـ وحدة المكان.

ج ـ وحدة الموضوع.

إلاَّ أن شوقي لم يغرق في بحر التأثر بالمدرسة الكلاسيكية الفرنسية بل نراه قد تجاوزها إلى المدرسة الرومانتيكية «الوجدانية» التي كانت شائعة في المسرح الإنجليزي خاصة عند شكسبير.

ويتضح ذلك في بروز النزعة الوجدانية التي دفعته إلى تأليف مسرحيتي مجنون ليلى وعنترة. كما يبرز ذلك في عدم تمسكه بنظرية الوحدات الثلاث التي كانت غالبة على المسرح الفرنسي، وأهم من ذلك كله هو إدخاله العنصر الفكاهي في المأساة، وهو أسلوب متبع لدى المدرسة الإنجليزية في ذلك الوقت، وقد أخذ به شكسبير في مسرحيته الخالدة أنطونيو وكليوبترا، وقد سار عليه شوقي في مسرحيته مصرع كليوبترا إلى درجة المطابقة، كما يقول الدكتور فوزي عطوي[2].

---

(1) شوقي شاعر العصر الحديث، ص117.

(2) شوقي شاعر الوطنية، ص47.

على أن أبرز درجات تأثر شوقي بتلك المدرسة هو النزعة الأخلاقية التي سادت في بعض مسرحياته الى درجة أن هناك من اتهم شوقي بأنه قد انحرف بالمسار التاريخي للأحداث، وصورها من خلال نظرته لا من خلال الواقع، وهذا يتنافى مع الموضوعية التي هي العنصر الأساسي في كتابه التاريخ، فهو رفض أن يصوّر كليوبترا وهي تنتقل بين أحضان القادة الرومان على أنها امرأة مستهترة ساقطة أخلاقياً، ولكنها امرأة وطنية تدافع عن وطنها بكل قوة، وأنها تستعمل المكر والخديعة لإيقاع الخلاف بين قادة الرومان.

وفي مسرحية مجنون ليلى حيث جعل ليلى تموت وهي عذراء، وأشاد بعفاف الجارية «آمال» في مسرحية علي بك الكبير.

وربما كان الدافع الى ذلك هو إيمان شوقي بأن مهمة الأديب تختلف تماماً عن مهمة المؤرخ، ذلك لأن الأديب يهمه أن يكون أدبه يتصف بنزعة أخلاقية بنّاءة تحافظ على سلامة المجتمع، وتنتصر للفضيلة فيه، وهو ما يتضح جلياً عند شكسبير، بل وعند اليونان الذين أبدعوا نظرية «التطهير»، وهي أن يتغلب الخير على الشرّ في العمل الفني، وقد ذهب الدكتور شوقي ضيف إلى القول (لذلك كان شوقي موفقاً جد التوفيق في جريان هذا التيار الخلقي

بمسرحياته، وبثه على لسان شخوصه وأقوالهم)[1].

ويقول الدكتور عز الدين اسماعيل عند حديثه عن مسرحيتي عنترة ومجنون ليلى: (فالهدف الأخلاقي يتركز في تأكيد المبادىء والأعراف والتقاليد التي درج عليها المجتمع... الخ)، إلى أن قال: (وهذا المنحى يدل على رغبة شوقي في عدم الاصطدام بالتقاليد والأعراف أو أحداث أي هزة لها، وميله على العكس الى تأكيدها)[2].

وقال الدكتور محمود حامد شوكت عن هذا الموضوع من خلاله حديثه عن مسرحيات شوقي (كما انعكست الآثار الاسلامية المتسعة الأفق، والعناية بتغليب الفضيلة على الرذيلة سواء في نفس الملوك أو الشخصيات الأخرى، فدافعت كليوبترا عن نفسها ودافع الأمويون عن سيادتهم..) الخ، إلى أن يقول: (وتظهر النزعة الاسلامية صلبة حين يقبل قائد الأسطول الروسي إلى علي بك لمساعدته ضد أعدائه فيرفض مساعدة من يخالفه في الدين)[3].

على أن شوقي شأنه شأن جميع المبرزين لم يسلم من توجيه سهام النقد اليه في اتجاهه المسرحي، وإن كانت هذه

(1) شوقي شاعر العصر الحديث، ص181.
(2) مقدمة الأعمال الكاملة ـ المسرحيات، ص14.
(3) المسرحية في شعر شوقي، ص30.

السهام لم تجرح إهابه أو تغض من مكانته أو تدني منزلته، بل على العكس ربما أنها ساهمت بدور كبير في صنع شهرة شوقي على اعتبار أن كل من كثر نقَّاده فلا بد أن يكون عظيماً.

واستطيع منعاً للإطالة تلخيص هذه الانتقادات والمآخذ فيما يلي:

1 ـ ما ذهب إليه بعض النقَّاد من أن شوقي قد نقل شعره الغنائي الى مسرحياته، ويتضح ذلك من الترابط الوثيق بين قصائد شوقي، وموضوع مسرحياته، ففي مسرحيات شوقي المستمدة من التاريخ وهي قمبيز، ومصرع كليوبترا، وعلي بك الكبير، وأميرة الأندلس، محاكاة لقصائد شوقي في وصف الحياة المترفة الناعمة، والصراع السياسي في قصور حكام مصر التي طفحت بها قصائده الغزلية، في حين يتضح من خلال مسرحيتي الست هدى، والبخيلة نفس الروح التي يمكن أن يدركها القارىء من خلال قراءته لقصائد شوقي الوطنيَّة التي تتجه هذه المرة إلى الشعب لا إلى الطبقة الحاكمة.

2 ـ إن شوقي قد اختار موضوع مسرحياته التاريخية من فترات كانت فيها تعيش لحظة الانكسار والضعف، فمسرحيته قمبيز تتحدث عن فترة استيلاء الفرس على مصر، ومسرحية مصرع كليوبترا تتحدث عن وقوع مصر

تحت سيطرة الرومان، في حين تتحدث مسرحية علي بك الكبير عن تدهور الأوضاع السياسية والاجتماعية تحت حكم المماليك، بل إن مسرحية شوقي النثرية الوحيدة، وهي أميرة الأندلس، تصوّر فترة الصراع بين ملوك الطوائف ممثلة في سقوط دولة المعتمد بن عباد في أشبيلية عى يد يوسف بن تاشفين المرابطي.

وهذا الأسلوب يتعارض مع اتجاه شوقي الوطني بعد عودته من المنفى، وكان الأولى به اختيار موضوع مسرحياته من الحوادث المضيئة، خاصة وأن شوقي لم ينظم هذه المسرحيات إلاَّ في السنوات الخمس الأخيرة من حياته بعد أن وثق علاقته بالشعب المصري ما عدا مسرحية علي بك التي كانت بدايتها أيام بعثته، ولكنه أعاد كتابتها من جديد في أواخر حياته.

3 ـ طغيان الغنائية على أسلوب شوقي المسرحي، ويتضح ذلك جلياً في عدم توازن الفصول المسرحية ومناظرها الداخلية، فبينما نجد أن هناك فصلاً يتألف في بعض مسرحياته من أربعة عشر مشهداً، كما في المنظر الثاني من الفصل الثاني في مسرحية عنترة يأتي المنظر الأول في نفس الفصل من مشهدين فقط، بل إن أحد المشاهد لم يتجاوز بيتاً واحداً فقط، في حين بلغ طول المنظر أو المشهد في بعض الأحيان عشرات الأبيات، مما يؤكد أن

أسلوب شوقي الغنائي المتمثل في قصائده ظلَّ مسيطراً عليه على حساب الأداء المسرحي التمثيلي، مما دفع الدكتور طه حسين إلى القول: (أما عن التمثيل فقد غنى شوقي وأطرب وأثر، ولكنه لم يمثل لأن التمثيل لا يرتجل ارتجالاً، ولا يهجم عليه، وإنما هو فن يحتاج الى الشباب والدرس والقراءة، فكان تمثيله صوراً تنقصها الروح، وإن حببها إلى الناس ما فيها من براعة الغناء)[1]

وهذا المأخذ لم يستطع شوقي ضيف أن ينفيه وإن كان قد حاول فقط أن يخفف من وطأته حيث يقول: (ولكن ينبغي ألاَّ ينتهي بنا ذلك إلى أن نقول كما قال طه حسين: إنه غنَّى ولم يمثِّل بل نقول: إنه مثَّل وغنَّى أو مثَّل وأعطى فرصة للغناء، ولم يعطها عن غير قصد، بل أعطاها قاصداً عامداً إذ اعتدَّ بالغناء واتخذه تياراً متمماً لفنه المسرحي)[2].

كما ذهب الى ذلك الدكتور فوزي عطوي حين قال: (غير أننا نظن في طه حسين المغالاة والمبالغة حين ينكر على شوقي التمثيل ويثبت له الغناء فحسب)[3].

كما حاول ذلك الدكتور محمد مندور حينما قال: (ونحن لا نلوم شوقي لتضمينه مسرحياته بعض المقطوعات

(1) حافظ وشوقي، ص221.

(2) شوقي شاعر العصر الحديث، ص186.

(3) شوقي شاعر الوطنية، ص46.

الغنائية، وكنا نودّ لو مثلت بعض تلك المسرحيات كأوبرا، وعندئذٍ كان لا بد أن يختفي ما لاحظه بعض النقّاد أو معظمهم)[1].

4 ـ إغفال شوقي للاتجاه الاسلامي في مسرحياته التي تدور أحداثها بعد الاسلام، وهي أميرة الأندلس، وعلي بك الكبير، ومجنون ليلى، لأن الدافع الى تأليفها إما الدافع العربي حيناً أو الدافع المصري حيناً آخر، أما الاتجاه الإسلامي الذي ينبثق من خلال أحداث المسرحيات فلم يكن مقصوداً، ولذا ذهب الدكتور عز الدين اسماعيل الى القول: (كانت مسرحيات شوقي الثلاث الأولى هي ما استمد فيها شوقي من ثقافته العربية، وكانت المسرحيات الخمس الأخيرة هي ما استمد فيها شوقي من التاريخ المصري القديم، والحديث نسبياً، ومن الواقع المعاصر)[2].

ويعلل الدكتور عز الدين ذلك بالقول: «لم يفكر شوقي أن يكتب مسرحية يستمد موضوعها من التاريخ التركي في أي مرحلة من مراحله، وكل ما نعرفه في هذا الشأن هو ما صرَّح به ابنه حسين من أن أباه كان قد شرع في كتابة مسرحية

(1) محاضرات عن مسرحيات شوقي، معهد الدراسات الى عام 1954م، ص20.

(2) مقدمة (الأعمال الكاملة ـ المسرحيات)، ص8.

عن محمد علي الكبير رأس الأسرة المالكة في مصر»[1].

ولذا علل الدكتور عز الدين وجوه السلوكيات الإسلامية في بعض المسرحيات بأنها سلوكيات لشخوص المسرحية، سواء العرب منهم أو المصريين. ثم قال: (ومن ثم كان من الصعب أن نعزل بعض مسرحياته لكي نصنفها في إطار اسلامي صرف)[2].

وهذا ما ذهب اليه ايضاً الدكتور محمد أحمد الحوفي عندما علل رفض علي بك الكبير مساعدة روسيا (بأن ذلك في نظر شوقي لكونه بطلاً توّاقاً إلى الاستقلال، ولأنه يقصد الى هدف وطني سام)[3].

في حين حاول الدكتور محمود حامد شوكت تصوير ذلك سلوكاً إسلامياً لا وطنياً حينما قال: (وتظهر النزعة الإسلامية جلية حين يقبل قائد الجيش الروسي الى علي بك الكبير لمساعدته ضد اعدائه فيرفض مساعدة من يخالفه في الدين)[4].

إلاَّ أنَّ هذا التعليل يبقى ضعيفاً أمام كثرة النقَّاد الذين لم يأخذوا به.

---

(1) مقدمة (الأعمال الكاملة ـ المسرحيات)، ص8.

(2) مقدمة (الأعمال الكاملة ـ المسرحيات)، ص9.

(3) وطنية شوقي، ص4.

(4) المسرحية في شعر شوقي، ص30.

5 ـ تغير المنحى التاريخي للأحداث، حيث يجد القارىء عند مقارنته بين أحداث المسرحية كما جاءت تاريخياً، وبين الإطار الذي وضعها فيه شوقي اختلافاً كثيراً، كما حدث حينما صوَّر كليوبترا بأنها وطنية محبة لوطنها، استعملت الحيلة والمكر للإيقاع بالقادة الرومان، في حين صورها التاريخ على أنها امرأة مستهترة تجري وراء نوازعها وشهواتها.

كما سار على ذلك في مسرحيتي مجنون ليلى وعنترة حين فسَّر العادات والتقاليد من وجهة نظره بصورة مخالفة تماماً للتاريخ، بل إن ذلك يتضح أكثر في مسرحية قمبيز التي دعت أديباً وناقداً كبيراً هو محمود عباس العقاد إلى كتابة رسالة صغيرة بعنوان «رواية قمبيز في الميزان» عدَّد فيها مخالفات شوقي للإطار التاريخي المتعلق بشخصية قمبيز وأسرته، وأن شوقي لم يتعمَّق في دراسة تاريخ مصر وتاريخ قمبيز دراسةً تؤهله لكتابة تلك المسرحية، مما أفقد تلك المسرحية قيمتها التاريخية، وذهب إلى القول: (إن الروايات التي نظمها شوقي قد خلت من الشخصيات، أو التبست فيها ملامح الأبطال أيما التباس مع أنها كلها أو بعضها تاريخية)[1].

(1) شعراء مصر وبيئاتهم، ص166.

إلاَّ أنَّ المدافعين عن شوقي في هذا المجال كانوا من الكثرة إلى درجة جعلت هذا الأسلوب الذي سار عليه يعتبر عملاً مقبولاً، ويحسب له لا عليه، رغم أنه في ذلك يخالف كتَّاب المسرح الغربيين الذين تأثر بهم حيث كانوا يلتزمون بالنص التاريخي بكل دقة، خاصة الفرنسيين منهم، ويعلّل هؤلاء النقَّاد رأيهم هذا بالنزعة الأخلاقية التي يرمي اليها شوقي، والتي يريد أن يعمِّقها في نفوس القرَّاء على أساس الفضيلة والوطنية والسمو، وتلك مهمة الإنسان من خلال كونه شاعراً لا من خلال كونه مؤرخاً، وقد أكدها قدماء اليونان من خلال نظرية التطهير التي تدعو في نهاية المسرحية إلى تغليب نزعة الخير على الشر.

ومن هنا فإن الدكتور عز الدين اسماعيل يقول: (إن شوقي لم يغير الحادثة التاريخية، وإنما أعاد تفسيرها من خلال مهمته كشاعر يعرف تماماً وظيفة المسرح حيث يقول: فهو ـ أي شوقي ـ فيما يختار من أحداث تاريخية يدير حولها بعض مسرحياته يكون مدفوعاً بمشاعر وطنية، وأعراف وتقاليد اجتماعية يستهدف تعميقها في نفوس الجماهير، وتأكيدها في ضمائرهم، وهو من أجل ذلك لا يفسّر غدر كليوبترا بأنطونيو على أساس الانحلال في سلوكياتها أو ميلها إلى النجم الصاعد آنذاك، وهو أكتافيو بقصد إغوائه، وبرغبتها في تحقيق أمجادها الشخصية، بل

يفسر هذا الغدر في ضوء سياسة وطنية كانت كليوبترا في رأيه تتبناها)[1].

كما ذهب الى ذلك الدكتور شوقي ضيف حينما قال: (وهكذا يجري في مسرحياته (أي شوقي) تيار أخلاقي تنتصر فيه الفضيلة وما يتصل بالفضيلة من وفاء ومروءة وكرم، وكأنه يريد أن يقوي في نفوس الجمهور العناصر التي ترغِّبُ في عمل الخير، ولا ريب في أن هذا المنزع يحمد لشوقي)[2].

كما ذهب إلى ذلك الدكتور فوزي عطوي عند تحليله لمسرحية شوقي مصرع كليوبترا، والمقارنة بينه وبين شكسبير في هذا المجال حيث قال: (شوقي مصري وطني يهمه أن يتصرف ببعض التفاصيل التاريخية قليلاً أو كثيراً دون أن تضيع المعالم العامة للتاريخ بفعل هذا التصرف، وذلك ليجعل من التاريخ القديم عبرة ومثالاً للأجيال التالية، هذا فضلاً عن أن المسرحية لا تعتبر مصدراً للتاريخ وإنما العكس هو الصحيح)[3].

وهو ما ذهب اليه الدكتور محمد حامد شوكت عند كتابته عن مسرح شوقي حيث قال: (كما انعكست الآثار

(1) مقدمة (الأعمال الكاملة ـ المسرحيات)، ص11.
(2) شوقي شاعر العصر الحديث، ص180.
(3) شوقي شاعر الوطنية، ص52.

الإسلامية المتسعة الأفق والعناية بتغليب الفضيلة على الرذيلة سواء في نفس الملوك أو الشخصيات الأخرى. . . الخ)[1].

كما أخذ بهذا الرأي الدكتور محمد أحمد الحوفي عند حديثه عن مسرحية: علي بك الكبير حيث قال: (اتخذ شوقي الصراع الأخير بين علي بك، ومحمد أبي الذهب موضوعاً لمسرحية علي بك الكبير، فصوَّره بطلاً توَّاقاً إلى الاستقلال) إلى أن قال: (وحاول أن يبرئه بروسيا، يريد بذلك أن يبرر موقفه، وأن يضفي عليه البطولة غير مشوبة بلوم، ولا تثريب على شوقي في ذلك لأنه يقصد إلى غرض وطني سام، فمن حقه أن يلون التاريخ بفنه، ولن يضار التاريخ بهذا التلوين لأن المسرحية ليست مصدراً وثيقاً من مصادر التاريخ)[2].

ومن هنا يتضح أن موقف العقاد من شوقي في هذه المسألة ينبع من كون العقاد رجل فكر، فهو للتاريخ أقرب.

وفي ختام هذا الفصل أود الإشارة إلى أن أخطاء شوقي في مسرحياته سواء التي أجمع النقَّاد عليها أم اختلفوا حولها

(1) المسرحية في شعر شوقي، ص30.
(2) وطنية شوقي، ص10.

لا تنقص من قدره، والاعتراف بأنه رائد المسرحية في الأدب العربي.

* * *

كشـــاف المـــراجع

الرقم	اسم الكتاب	المؤلف	إيضاحات
1	أبي شوقي	حسين شوقي	مطبعـــة مصـــر، 1947م
2	(أحمد شوقي) الأعمال الكاملة المسرحيات	أحمد شوقي	الـــهيئة المصـــريـــة ، العامة لكتاب1984م
3	أندلسيات شوقي	د. صالح الأشتر	جـــامـــعة دمشـــق 1371هـــ- 1959م
4	الأعلام	خير الدين الزركلي	الطبعة الثانية
5	تاريخ الأدب العربي	حنا الفاخوري	الطبعة الـــثالثة ، المطبعة البولسية
6	حافظ وشوقي	طه حسين	الطبعة الـــثالثة 1966م
7	حياة شوقي	أحمد محفوظ	مطبعة مصر
8	شعراء مصر وبيئاتـــهم في العصر الماضي	عباس محمود العقاد	القاهرة 1933

9	الشوقيات	أحمد شوقي	المكتبة التجارية الكبرى 1970م
10	شوقي شاعر العصر الحديث	شوقي ضيف	دار المعارف 1963م
11	شوقي شاعر الوطنية والتاريخ والمسرح	فوزي عطوي	دار الفكر العربي- الطبعة الأولى
12	شوقي في ركب الخالدين	نجيب الكيلاني	الطبعة الأولى 1963م
13	مذكرة عن الشعر الحديث	محمدكامل الفقي	كلية اللغة العربية، الرياض 1391هـ
14	ملوك وصعاليك	صالح جودت	مطبعة النهضة - القاهرة 1378هـ، 1958م
15	المسرحية في شعر شوقي	محمود حامد شوكت	1947م القاهرة
16	ودخلت الخيل الأزهر	محمد جلال كشك	الزهراء للإعلان العربي
17	وطنية شوقي	محمد أحمد الحوفي	1410 - 1990م مطبعة نهضة مصر

* * *

كشاف المجلات

الرقم	اسم المجلة	إيضاحات
1	مجلة المجمع اللغوي الدمشقي	السنة 1926، 1943م الجزء الأول،
2	مجلة المعرفة	نوفمبر 1932 ص575
3	مجلة المقتطف	المجلد 68 سنة 1926 ص582
4	مجلة الهلال	المجلد الأول 1932 ص106

❊ ❊ ❊ ❊

لمراسلة المؤلف :

إسماعيل بن إبراهيم السماعيل

صندوق البريد : ٥٢٠٩ الرياض ١١٤٢٢

هـ. ف. ٦٢٧١٦٩٢(٠١)

جوال : ٠٥٥٢٢٧٠٨٢

البريد الالكتروني : abu alarab@ayna.com

تصميم الغلاف : الفنان عبدالرحمن محمد

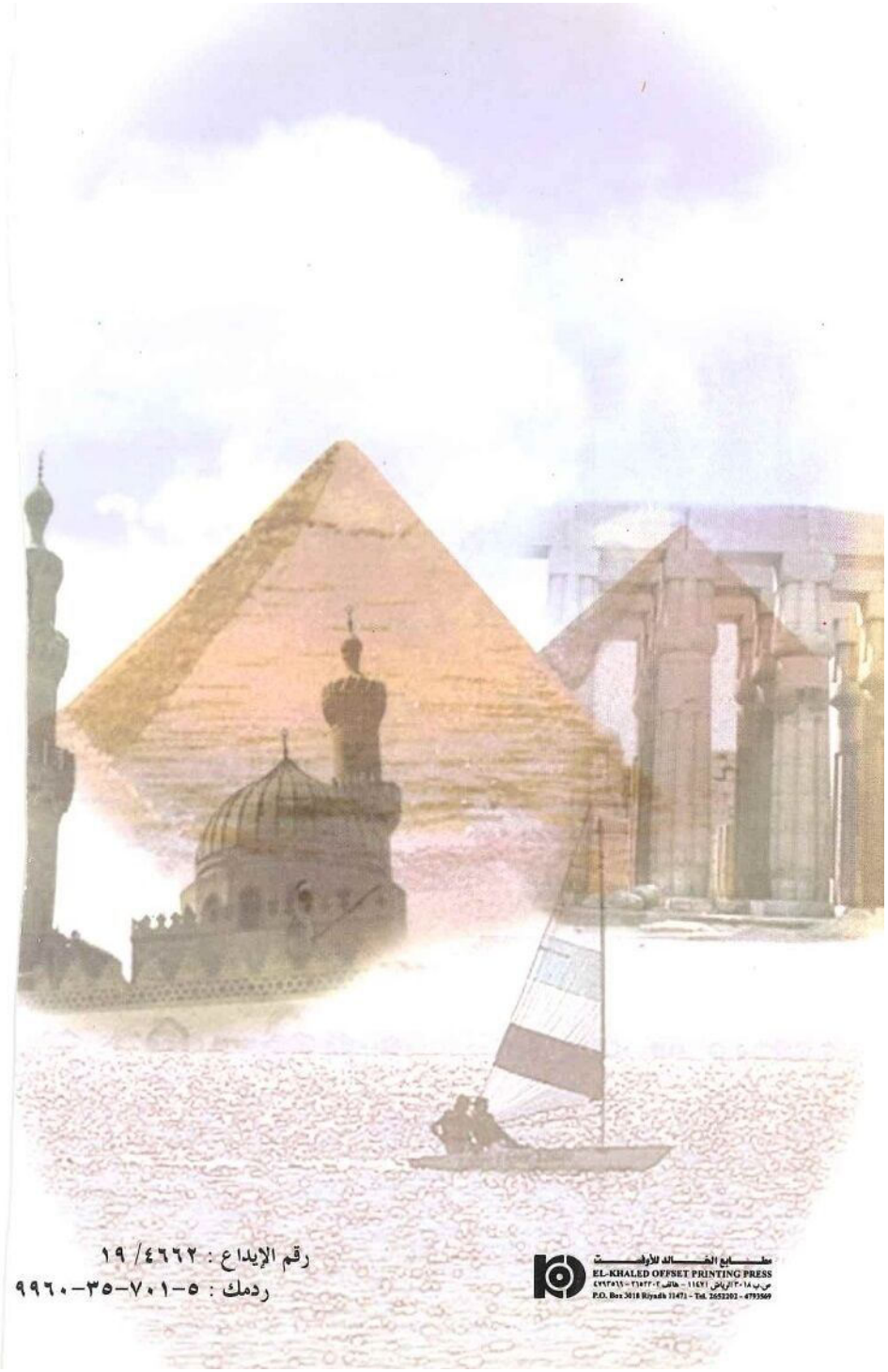

رقم الإيداع : ١٩/٤٦٦٢
ردمك : ٥-٧٠١-٣٥-٩٩٦٠

مطـــابع الخـــالد للأوفســـت
EL-KHALED OFFSET PRINTING PRESS
ص.ب ٣٠١٨ الرياض ١١٤٧١ - هاتف ٢٦٥٢٢٠٢ - ٤٧٩٣٥٦٥
P.O. Box 3018 Riyadh 11471 - Tel. 2652202 - 4793569